بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة اليرموك

كلية الآداب

قسم اللغة العربية

المكان في الرواية الأردنية

مدينة عمان نموذجاً

إعداد الطالبة

إسلام حسن شحادة القضاة

إشراف الأستاذ الدكتور

خليل محمد الشيخ

١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م

المكان في الرواية الأردنية

مدينة عمان نموذجاً

إعداد الطالبة

إسلام حسن شحادة القضاة

بكالوريوس لغة عربية من جامعة اليرموك، ٢٠٠٣م

قُدِمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير من جامعة اليرموك في

اللغة العربية تخصّص أدب ونقد

لجنة المناقشة

الأستاذ الدكتور خليل الشيـــــغ .... رئيساً وعضـــواً

الأستاذ الدكتور نبيل حـــــداد .... عضـــواً

الدكتور نايف العجلونـــــي .... عضـــواً

الدكتور إبراهيم الكوفحـــــي .... عضـــواً

١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م

الإهداء

إلى أمي الحبيبة وأبي الحبيب إيفاءً بالفضل وعرفاناً بالجميل في ديار الغربة، وإلى زوجي العزيز هيثم، وإلى إخوتي، أنس، ومحمد، ومحمود، وإلى أخواتي شيماء، وهديل.

إلى كل لحظة جميلة عذبة عشتها بينهم، إليهم جميعاً أُهدي هذا الجهد، وإلى كل من خطا معي دروب هذا البحث.

فهرس المحتويات

الفصل الثاني: عمان في الرواية الأردنية

الفصل الثالث: منظورات تشكيل المكان

الملخّص

المكان في الرواية الأردنية مدينة عمان نموذجاً

إعداد الطالبة

إسلام حسن شحاده القضاة

إشراف الأستاذ الدكتور

خليل محمد الشيخ

تتصدى هذه الدراسة لقراءة "المكان الروائي" من خلال الحديث عن أهمية هذا المكان من حيث البنية، فضلاً عن قراءة العناصر السردية الأخرى التي يتداخل معها ويرتبط بها، الشخصية والحدث والزمان، ليتجلى الدور الفعّال للمكان في نمو وتشكيل الشخصية، وتشكيلها من حيث تأثرها بالبيئة المحيطة بها والواقع الذي تعيشه.

توقفت الدراسة عند مدينة عمان بوصفها مكاناً روائياً تقع فيه الأحداث فتتفاعل مع شخصياته. وقد تم تقسيم المكان إلى قسمين:

أ- المكان المفتوح.

ب- والمكان المغلق.

فاشتمل المكانان على عدة أمكنة تميزت بطابع خاص ودلالة خاصة، فمثلت أمكنة المدينة والحي المكان المفتوح، بينما مثل السوق والمقهى والحمام والقبر الأمكنة المغلقة في مدينة عمان.

تضم عمان الحديثة بين جنباتها خليطاً متنوعاً من البشر، وقد أكسبها هذا الخليط لوناً متميزاً يقوم على التعدد والتنوع، وعلى الرغم من تعدد الجنسيات فيها، فقد ظلت عمان تمثل أسرةً واحدة، تسودها المحبة والألفة، لذا تعلق الجميع بعمان وتوحدت أحلامهم في هذه المدينة في كافة المجالات.

وبهذا الخليط نلاحظ تطور عمان، فجاءت النواحي التاريخية والاجتماعية والفنية مبينةً مدى التغير الذي حل بمدينة عمان من الماضي إلى الحاضر الحديث.

وأبرز الوصف المكان روعة مدينة عمان في الروايات الأردنية المطروحة فجاءت الأمكنة التاريخية ممثلة بجبل القلعة، والمدرج الروماني، والمسجد الجامع وغيرها، بالإضافة إلى أمكنتها الأخرى التي زينت مدينة عمان كالأسواق الشعبية والأسواق الرئيسية في مركز المدينة، والمقاهي ودور السينما بالإضافة إلى الحمامات مثل حمام النصر الذي يعد من الأمكنة الجميلة في عمان.

المقدمة

تشكّل مدينة عمّان–عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية- كما تتجلى في الخطاب الروائي الأردني، محوراً لهذه الدراسة، وقد اختارت الدراسة هذا الموضوع لمجموعة من الاعتبارات تتوزع بين الفني والتاريخي والاجتماعي، فعلى الصعيد الفني استطاعت الرواية الأردنية الحديثة أن تبدأ في بلورة عمّان بوصفها فضاءً روائياً ذا أبعاد جمالية، بعد أن كانت الرواية في بداياتها تذكر هذه المدينة أو تشير إليها على نحو عابر، فأدى ظهور الحضارة الحديثة لهذه المدينة إلى ازدهارها وتميزها بكل ما هو جميل ورائع، فقد اكتسبت عمان قبل الإسلام وبعده مكانة حضارية لافتة، بلغت ذروتها –على ما يبدو- في القرن الرابع الهجري، إذ أصبحت سوقاً تجارية هامةً ومركزاً حضارياً مهماً[1].

وقامت سوق تجارية كبيرة في زيزياء لخدمة الحجاج في موسم الحج، يتزودون منها بما يحتاجون، ولم تقتصر على خدمة (الحجاج وحدهم، بل كانت فرصة للعربان لكي يحصلوا على حاجتهم من السلع عن طريق المقايضة بمنتجاتهم من الغلال والأجبان والبسط والماشية وغير ذلك، لهذا تميز تجار مدينة عمّان بدورهم الفعال والنشط في هذه السوق الموسمية لقربها من مدينتهم، ولم تفقد عمّان مركزها التجاري المرموق في القرون التالية، حيث كانت على علاقات تجارية مع غيرها من مراكز الحضارة في مصر، والشام، والعراق.

ففي مدينة عمّان أقيمت منشآت عديدة في العصر الإسلامي، ولكن امتداد العمران الحديث الذي شمل كل شبر من المدينة ساعد على طمس كل تلك المنشآت ومثال ذلك المسجد الجامع الذي يقع في طرف سوق المدينة القديمة، في وسط الحي التجاري الحالي، والذي يعتبر من أقدم المساجد الجامعة التي أقيمت في الأردن وأجملها، إذ شبه بجامع مكة المكرمة حسناً وجمالاً وروعة بناء، وتخطيط هذا الجامع يتبع النظام القديم للمساجد الجامعة في الإسلام، ويشتمل على صحن مستطيل يدور حوله ثلاث مجبنات إلى جهاته الشرقية والشمالية والغربية، وبيت للصلاة وصومعة أو مئذنة، وقد

(١) محمد خريسات : عمان في العهد الإسلامي، منشورات أمانة عمان، ط١، ٢٠٠٤، ص ١٣.

بني هذا الجامع من الحجارة المدقوقة المشهرة، وبقي هذا المسجد موجوداً في مدينة عمَّان حتى أواخر القرن التاسع عشر حيث حلّ به الخراب والهدم، وفيما بعد تم هدم المسجد حديثاً وأقيم على أساساته الجامع الحسيني الكبير الموجود حالياً في قلب مدينة عمَّان.

أما الحمامات فقد كانت من أهم المؤسسات الاجتماعية في الحضارة الإسلامية، وكانت الظاهرة البارزة في معظم المدن الإسلامية هو تعدد الحمامات وتنوعها. ففي مدينة عمَّان وجد حمام ضخم يعد من أجمل ما وصل إلينا من الحمامات الرومانية، واستمر هذا الحمام بتقديم خدماته إلى أهالي عمَّان في العصور الإسلامية المختلفة، وقد وصلت إلينا بقايا هذا الحمام البديع، ويمكننا مشاهدة هذه البقايا بالقرب من أمانة العاصمة.

إلا أنه وجد في مدينة عمَّان حمام آخر أصغر من الحمام الروماني، بني في العصر الإسلامي، وقد ظلّ هذا الحمام قائماً في مدينة عمَّان حتى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، حيث مر به الرحالة كوندر سنة ١٨٨١م، ووصفه بالحمام الصغير، وكان آنذاك متهدماً شأنه شأن جامع عمَّان[1].

كما اشتهرت مدينة عمَّان بكثرة المقاهي فيها، حيث يجتمع فيها الناس للتسلية ولقضاء وقت الفراغ فيها بعد أن كانت تمثل ملتقى الأدباء والمثقفين.

ومع تقدم الأيام وتغيّر الزمان من وقت لآخر تحولت مدينة عمَّان إلى لؤلؤة جميلة بنهضتها العمرانية الحديثة بإنشاء الجسور والمباني التي تناطح السحاب.

عرفت عمَّان بأنها مدينة حصينة وذات أسوار قوية، فكان الغزاة يقفون عاجزين أمام أسوارها، ومما لا شك فيه أن موقعها الاستراتيجي على جبل القلعة، ومناعة أسوارها، ووفرة المياه بها، جعلها تصمد أمام الحصار الطويل، وقد دلت الاكتشافات

(١) يوسف غوانمة : عمان حضارتها وتاريخها، دار اللواء للصحافة والنشر، عمان، ط١، ١٩٧٩، ص ١٨٩-١٩٢.

الأثرية على أنها كانت محاطة بخط دفاعي قوي يتمثل في الأبراج المنتشرة على التلال المجاورة.

فعلى الصعيد التاريخي لمدينة عمّان نلاحظ أنها تميزت بالطابع الروماني الذي مازال باقياً في مدينة عمّان، كالمدرج الروماني الذي يعدّ من أنفس الآثار الباقية في مدينة عمّان وأهمها، ومن أعظم المدرجات الرومانية في بلاد الشام، بناه الإمبراطور أنطونيوس بيوس (١٣٨-١٦١م)، على منحدر لأحد الجبال المواجهة للقلعة.

وبهذا نلاحظ مواصلة النشاط الاقتصادي والتجاري في مدينة عمّان بعد أن اشتهرت بأهميتها الحضارية منذ العصر الروماني.

ومن المعروف أنّ دولة الأنباط هي أول دولة عربية زهت وازدهرت في جنوب الأردن، بعدها قدم الرومان واهتموا بالمدن وإنشاء وزيادة العمران، ومن الجدير بالذكر أنّ مدينة عمّان –فيلادلفيا سابقاً– كانت تحت سلطة مقاطعة سوريا بقيادة القائد الروماني بومبي عام ٦٤ق.م، وبهذا ألقى الرومان في بداية الأمر على عاتق الأنباط حماية منطقة شرقي الأردن، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك، ويعود السبب إلى اجتياح جموع من الأعراب القادمة من الصحراء شرقي الأردن بوصولهم إلى حوران، وهنا تم تكوين حلف يضم المدن الهلينية الواقعة شرقي نهر الأردن فعرف هذا الحلف باسم "الديكابوليس".

وبهذا نلاحظ وقوع مدينة عمّان على أهم طريق تجاري في العالم القديم، فأصبحت مركزاً تجارياً هاماً، تأتيها القوافل المحملة بأصناف البضائع المختلفة، وفي القرنين الثاني والثالث بعد الميلاد، اهتم الرومان بها اهتماماً خاصاً، فزادوا بناياتها ونظموها، كما أعيد تخطيط المدينة على النسق الروماني وزيدت مساحتها.

أما في أثناء الحكم الإسلامي فإن ذكر مدنية عمان عند نخبة من الشعراء العرب مثل الأحوص بن محمد الأنصاري* في مدح عبدالعزيز مروان والي مصر (٦٥-٨٥هـ)، والد الخليفة عمر بن عبدالعزيز، يشير إلى شهرتها وذيوع صيتها بوصفها مكاناً جميلاً:-

أقول بعمّان وهل طربي بـــه ... إلى أهل سلع إن تشوقت نافـــعُ
أصاح ألم تحزنك ريح مريضـــة ... وبرقٌ تلالا بالعقيقين لامـــعُ
وإنّ غريب الدار مما يشوقـــهُ ... نسيم الرياح والبروقُ اللوامـــعُ
ومن دون ما أسمو بطرفي لأرضهـم ... مفاوز مغبرٌ من التيه واســعُ
نظرت على فوت وأوفى عشيـــة ... بنا منظر من حصن عمّان يافـــعُ
وللعين أسراب تفيض كأنمـــا ... تُعلُّ بكحل الصاب منها المدامـــعُ
وكيف اشتياق المرء يبكـــي صبابة ... إلى من نأى عن داره وهو طامـــعُ
أريد لأنسى ذكرها فيستوقـــني ... رفاق إلى أهل الحجاز رواجـــعُ(١)

لقد توالت الحضارات على مدينة عمّان، فكما اهتم بها الرومان كذلك اهتم بها بنو أمية فازدهرت في العصر الأموي، ومما يدل على ذلك وجود الآثار المكتشفة حديثاً في قلعة عمّان، حيث ترجع إلى العصر الأموي. وأسس الأمويون القصور الخلوية التي ما زالت آثارها قائمة حتى يومنا هذا، فاتخذوها مواضع للراحة والصيد، وقد حظيت البلقاء الواقعة بالقرب من عمّان بأهم هذه القصور ومنها : قصر المشتى، وقصر الموقر، وقصير عمرة، وقصر الخزانة، وقصر الطوبة، وقصر القسطل، وقصر الأزرق، وقصر خربة المفجر.

---

* هو عبدالله بن محمد بن عبدالله بن عاصم بن ثابت من ضبيعة بن مالك، وهو من الأوس، وسمي بالأحوص لحوص في عينيه، والحوص ضيق يعتري مؤخر العين.

(١) محمد الصويركي الكردي : الأردن في أشعار العرب، منشورات وزارة الثقافة، عمـــان، ١٩٨٨، ص ٧١.

وفي العصر العباسي بقيت عمَّان مزدهرة محتفظة بقيمتها كما كانت عليه في العصر الأموي، فأكد المقدسي استمرار الازدهار والعمران، وذلك في النواحي الاقتصادية، والثقافية، والاجتماعية، فأصبحت عمَّان مركزاً لشبكة الاتصالات الهامة التي كانت تربط الجزيرة العربية بالشام والعراق.

أما في العصر الفاطمي لمدينة عمَّان، فنلحظ ظهور الدور البارز للفاطميين في عمَّان، فالنفوذ الفاطمي في عمَّان كان كبيراً وبشكل ملحوظ أكثر من أي مدينة شامية أخرى، وقد وصفها المقدسي فقال : "عمان على سيف البادية، ذات قرى ومزارع، رستاقها البلقاء، معدن الحبوب والأغنام، بها عدة أنهار وأرحية (طواحين) يديرها الماء ولها جامع ظريف بطرف السوق، مفسفس الصحن، وقد قلنا إنه شبه مكة..."(1).

وفي العصر الأيوبي عمَّ الأمن والاستقرار في منطقة الأردن في ظل رعاية كل من الملك المعظم عيسى والملك الناصر داوود، فتألقت مدينة عمَّان وأصبحت مركزاً تجارياً هاماً، فهي في هذه الفترة مدينةً زاهرة عامرة، ذات تجارة يؤمها التجار من دمشق وبغداد وغيرها، بحكم كونها محطةً تجاريةً على طريق التجارة القادم من الجنوب العربي والبحر الأحمر، وفي هذه الفترة امتلأت بالأسواق والقيساريات والمتاجر الزاخرة بصنوف البضائع المختلفة : من الهند، والصين، واليمن، والساحل الإفريقي، ومصر، والعراق وغيرها.

أما عصر المماليك فلم يدم طويلاً لكثرة الحروب وانتشار الوباء إلى أن سقطت الدولة المملوكية في معركة مرج دابق على يد السلطان العثماني سليم الأول عام (٩٢٢هـ/١٥١٦م)، فأصبحت الأردن تحت الحكم العثماني.

ففي العهد العثماني حاول العثمانيون نشر الأمن والاستقرار من خلال الحاميات العسكرية، أما في عمَّان فقد هجرها سكانها إلى الداخل، ولم يبق فيها إلا القليل من السكان يعيشون في بعض كهوفها، يربون أغنامهم ويستغلون بعض أراضيها الواقعة

(1) محمد خريسات : عمان في العهد الإسلامي، ص ٨٩.

على جانبي السيل، وبقي الأمر كذلك إلى أن جاءت جموع الشراكسة إلى عمَّان وسكنوا فيها، وكان ذلك في عام ١٨٧٨م، وظلت الجموع تتوافد حتى عام ١٩١٢م، ومنذ أواخر القرن التاسع عشر بدأت جموع الأهالي من السلط وغيرها من مناطق الأردن تسكن مدينة عمَّان، وبدأت على مستوى السكانية تزداد فبنوا الأسواق والدور لسكناهم، وهكذا بدأت عمَّان تجتذب المواطنين من دمشق وبعض المدن الفلسطينية، فشكلوا مع الشراكسة مجتمعاً مدنياً، واستمرت مدينة عمَّان في النمو والازدهار لتصبح عاصمة إمارة شرقي الأردن بعد وصول الأمير عبدالله بن الحسين إليها سنة ١٩٢١م. ومنذ تلك الحقبة، بدأت عمان تأخذ طابع المدينة الحديثة، وعاصمة الدولة وبدأت تتطور على شتى المستويات.

ولاشك أنّ المستوى الروائي الذي تحتل فيه عمان أبعادها المكانية، مرتبط على المستويين التاريخي والاجتماعي بتشكل عمان الحديثة بوصفها مدينة حديثة، فيتشكل في رحاها جوانب اجتماعية جديدة في اختلاف العادات والتقاليد بين الناس لاختلاف أجناسهم، كما اختلفت العادات بين أهل القرى وأهالي مدينة عمان، فجاء الاختلاف في هيئة اللباس، وتعدد اللهجات وغيرها.

لقد تناولت هذه الموضوعة بعض الدراسات النقدية أثناء تناولها للتطور الروائي في الأردن، كدراسة إبراهيم السعافين "*الرواية في الأردن*" عام ١٩٩٥م، ودراسة نزيه أبو نضال "*علامات على طريق الرواية في الأردن*" عام ١٩٩٨، ودراسة أخرى لنبيل حداد "*الرواية في الأردن فضاءات ومرتكزات*"، عام ٢٠٠٢م، وقد افاد البحث من تلك الدراسات رؤية ومنهجاً.

أما هذه الدراسة فهي مبنية على تحليل النص الروائي على مجلى من بعض الدراسات التاريخية والاجتماعية لمدينة عمَّان، فاشتملت على ثلاثة فصول كالتالي :

الفصـــــل الأول: يبحث هذا الفصل بيان مصطلح المكان اشتقاقاً واصطلاحاً، بعد ذلك تظهر الدراسة الفرق بين المكان الواقعي والمكان الفني، وأن موضع الاهتمام

هو المكان الفني، فيرتبط عنصر الزمان، والشخصية، والحدث بالمكان الروائي، فتخترقه ليتشكل المكان الروائي، وذلك من خلال النصوص الروائية الأردنية المطروحة.

الفصل الثاني: تمّ فيه التركيز على مدينة عمَّان من خلال الماضي والحاضر، بدءاً من عمانّ البلدة إلى أن تغيرت عند تأسيسها، واستمر تطورها من زمن إلى زمن آخر حتى أصبحت عاصمة حديثة تفخر بنهضتها العمرانية، وتقدمها.

أما الفصل الأخير فتناول موضوع تشكيل المكان من ناحية سردية ومن ناحية وصفية، فالسرد يبدأ مع تاريخ البشرية، فلا يوجد أي شعب بلا سرد، فهو موجود في كل مكان كالحياة.

فالسرد ينمو ويتطور من خلال اتصاله بعنصري الزمان والمكان ليؤدي رسالته، فظهور الشخصيات ونمو الأحداث يسهم في تشكيل البناء المكاني، لهذا يرتبط المكان بنمو الأحداث وتشكلها سرداً ووصفاً.

ويطيب لي في الختام أن أتوجه بالشكر والتقدير إلى أستاذي الفاضل الدكتور خليل الشيخ لمتابعته المتواصلة لي أثناء الكتابة، ولما قدَّمه لي من إرشادات مفيدة لهذه الدراسة، فله مني وافر التقدير والعرفان.

كما وأتقدم بوافر الشكر، وعظيم الامتنان للدكتور نبيل حداد، والدكتور نايف العجلوني، والدكتور إبراهيم الكوفحي لقبولهم وتفضلهم بمناقشة هذه الرسالة.

الفصل الأول

المكان وأهميته في التشكيل الروائـــــــي

١-المكان في البنية الروائية :

قبل الحديث عن أهمية المكان الروائي لا بد من تعريف المكان لغةً ففي لسان العرب ورد ذكر المكان تحت الجذر "كون" بمعنى الموضع، والجمع أمكنة وأماكن، توهموا الميم أصلاً حتى قالوا تمكن في المكان[1]. كما وجد المكان تحت الجذر "مكن" بالمعنى نفسه والجمع أمكنة[2].

أما عند الزبيدي في تاج العروس، فقد عرف المكان بقوله : "المكان هو الموضع الحاوي للشيء"، وقد جله تحت الجذر "كون"[3].

أما في الاصطلاح جاء تعريف المكان عند جيرالد برنس على النحو التالي: "بأن المكان أو الأمكنة التي تقدم فيها الوقائع والمواقف (مكان المواقف وزمانها، مكان القصة) والذي تحدث فيه اللحظة السردية"[4].

هذا ومن الممكن أن يتم السرد دون الإشارة إلى مكان القصة، ومكان اللحظة السردية أو العلاقة بينها (جون أكل ثم نام) إلا أن المكان يمكن أن يلعب دوراً مهماً في السرد، وأن السمات أو الوصلات بين الأماكن المذكورة يمكن أن تكون مهمة وتؤدي وظيفة موضوعية وبنيوية كوسيلة للتشخيص[5].

فمثلاً إذا قام السارد بأداء سرده من سرير في أحد المستشفيات، فإن هذا يعني أنه أو أنها على حافة الموت، وأنها تسارع من أجل أن تكمل سردها، وفضلاً عن ذلك فإن من السهل أن يتفهم الواحد أن هناك سرداً أو أكثر تتعارض فيه اللحظة السردية مع المسرود (أنا أسرد من خلية سجن وقائع حدثت في مكان طلق) أو أنواع من السرد

(١) لسان العرب : مادة "كون".

(٢) لسان العرب : مادة "مكن".

(٣) الزبيدي : تاج العروس، مادة "كون".

(٤) جيرالد، برنس : المصطلح السردي، ترجمة : عابد خزندار، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣، ص ٢١

(٥) المصدر السابق، ص ٢١.

يكون فيه المكان الأول بعيداً ومختلفاً بشكل أو أقل عن الآخر، وبالتالي يكون فيه السرد أكثر دقة " *أنا أسرد من فيلادلفيا وقائع حدثت في نيويورك، وأنا أستمر في سردي من برنستون وأنهيه في نيويورك*"، كما أن هناك أنواعاً من السرد تقدم فيه الأمكنة التي تحدثت فيها الوقائع المسرودة وفقاً لوجهات النظر المختلفة(١).

وهناك مصطلح آخر استخدم في الفن الروائي، يطابق مفهوم المكان من حيث المعنى والدلالة، هو مصطلح "الفضاء" فعدد جيرار جينيت أربعة فضاءات قائمة في صلب التكوين الأدبي وهي: فضاء اللغة، وفضاء الكتابة، وفضاء التعبير، وفضاء الأدب، وما يهمنا هو فضاء الأدب الذي يمثل لنا الإنتاج الأدبي ككل، أي كنتاج ضخم يتجاوز حدود العصور والجغرافيا، ففي مجال الرواية نرى أنها ترسم الإطار الذي تتحرك فيه شخصياتها، فالراوي حين يرسم الفضاء، يحمل القارئ إلى عوالم خيالية، ويبث فيه الإحساس بأنه يحيا فيها ويتنقل في أنحائها(٢).

وهناك مصطلح أخر هو الحيّز، الذي استخدم حديثاً في الكتابات النقدية الحديثة على اعتبار أن مفهوم الفضاء يتسع إلى الخيال أكثر، بينما الحيز فإنه يستعمل للنتوء، والوزن، والثقل، والحجم، والشكل، ففضّل البعض إيقاف المكان على مفهوم الحيز وحده(٣).

وعند الانتقال للمكان بشكل عام، لا بد من التمييز بين المكان الواقعي والمكان الفني، فالفرق كبير بينهما، فنحن محاطون بالأمكنة منذ لحظة الولادة، حتى وقت مغادرة الحياة التي يستحيل وجودها خارج المكان، وحتى بعد الموت فإن المؤمنين بخلود الروح على اختلاف مذاهبهم ومعتقداتهم يفترضون للروح أمكنة تسافر إليها، أو تؤول إليها كالجنة والنار، والمؤمنون بالفناء المطلق أو تحول المادة الجسدية بعد الموت، لا

---

(١) جيرالد برنس : المصطلح السردي، ص ٢١٤.

(٢) لطيف زيتوني: معجم مصطلحات نقد الرواية، دار النهار للنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٢، ص ١٢٧.

(٣) عبدالملك مرتاض: في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٨، ص ١٤١.

ينفون المكان، وإنما يضعون حدوداً لبعض الأمكنة المفترضة، وإن تجاوزت الحدود ما يقاربه البشر في قدرتهم على التخيل، وجميع هذه الأمكنة لا تعنينا ما لم يحلنا الفن إليها، لأن أقرب الأمكنة إلينا وأكثرها ألفة لا تحقق ما تحققه في الفن.

فالأمكنة الطبيعية تزخر بجماليات رائعة يصعب على الفنان محاكاتها بأي أسلوب يشاء، غير أن أجمل هذه الأمكنة الطبيعية لا تمتلك قيمة فنية تهم البحث الجمالي، ومثال ذلك الغيوم و التشكلات البديعة التي تأخذها أو بعض التشكيلات اللونية التي نجدها في بعض أنواع الطيور، نجد أن هذه المشاهد الطبيعية تزخر بجمال غير محدود لكنها قلما تستوقف مشاهدها، أكثر مما يستلزمه وقت إدراكها في حدوده الدنيا، أو وقت إطلاق شيء عابر من الإعجاب الذي لا يستوقف غالباً مفكراً جمالياً عند تأمل عمل في صنعته يد الإنسان، لذلك وجدت أسباب وراء استئثار المكان الفني باللذة الجمالية التي يحصل عليها المتعامل معه واستئثاره بالدراسات النقدية مقابل عجز الأمكنة الواقعية عن فعل ذلك، وهي [1]:

١- اختزال المكان الفني كميةً من النشاط البشري الإبداعي، فالإنسان يستثيره إبداع الإنسان أكثر مما يستثيره إبداع الطبيعة.

٢- اتسام المكان الفني بالخلود والديمومة، فالشجرة الواقعية تزول مهما طال عمرها؛ بينما يستمر توضعها في اللوحة فترة أطول.

٣- سهولة التواصل مع المكان الفني من خلال أعمال الفنان عند ذكره لعدة أماكن حينها قد لا يكون القارئ قد رأى تلك الأماكن أو زارها.

٤- يعد المكان الفني مصدراً لعلوم إنسانية مختلفة، فالفن بفروعه المتعددة واحد من أهم مصادر إنشاء التاريخ وسواه من علوم إنسانية أخرى [2].

---

(١) صلاح صالح : قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر، دار شرقيات للنشر، ط١، ١٩٩٧، ص ١٦.

(٢) المرجع السابق، ص ١٦-١٧.

وعند الانتقال إلى المكان الروائي نرى أنّ غالب هلسا توقّف عندما قام بترجمة كتاب جاستون باشلار "جماليات المكان" يتحدث عن أهمية المكان، من خلال ملاحظته أنّ العمل الأدبي عندما يفتقد المكانية، يفتقد الخصوصية وبالتالي الأصالة، لذلك يرى أن المكانية تتصل بجوهر العمل الفني فيما يعرف *بالصورة الفنية* عندما يقوم المؤلف أو الراوي بنقل تجربة. وعندما يتحدث عن ماهية المكان فإنه يراه مكاناً أليفاً من خلال البيت الذي ولدنا فيه أي بيت الطفولة، إنه المكان الذي مارسنا فيه أحلام اليقظة وتشكّل فيه خيالنا. فالمكانية في الأدب هي الصورة الفنية التي تذكرنا أو تبعث فينا ذكريات بيت الطفولة، وأن مكانية الأدب العظيم تدور حول هذا المحور[1].

فالمكان الروائي يعد مستوى من مستويات المكان الفني، فيتشكل بواسطة اللغة وفي فضاء اللغة، فلا كينونة للمكان الروائي بعيداً عن علامات اللغة، إذ إن المكان كائن صامت يلج اللغة بفراغه وأشيائه ليتحدث من خلالها، فالكائن الإنساني يكمن للمكان بشباك اللغة، وهو بذلك يمنحه لساناً ولغة، وعليه تعد اللغة الوسط الذي يستيقظ فيه المكان من غفوته الأبدية، ليتحدد ويتمفصل ويجتاز على كينونته ووجوده الفني[2]. فاللغة هي مأوى المكان في النص الروائي، على عكس الأمكنة في الأجناس الفنية الأخرى: المسرح والموسيقا والفن التشكيلي والسينما وغيرها. وبذلك يتمتع المكان بأهمية إستراتيجية في تشكيل الخطاب السردي، عبر تداخله مع المكونات السردية الأخرى وبذلك يغدو المكان "*العمود الفقري الذي يربط أجزاء الرواية ببعضها البعض*" ومن هنا يمتاز المكان ببعد حيوي في النص الروائي، وقد تجاوز الدور التقليدي الذي ألصق به سابقاً بوصفه ديكوراً أو حيزاً للقوى الفاعلة (الشخصيات) إلى احتيازه على أدوار وأبعاد إستراتيجية في بنية الرواية الجديدة، حتى أصبح الهدف والمقصد الذي من

(١) جاستون باشلار : جماليات المكان، ترجمة : غالب هلسا، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٠، ص ٧.

(٢) خالد حسين : شعرية المكان في الرواية الجديدة "الخطاب الروائي لإدوار الخراط نموذجاً، مؤسسة اليمامة، الرياض، ٢٠٠٠، ص ٧٨.

أجله تتم عملية صناعة النص بذاته على حد قول الناقد الفرنسي رولاند بورنوف *Roland Baurneuf* فـ " المكان الروائي ليس عنصراً زائداً في الرواية، فهو يتخذ أشكالاً ويتضمن معاني عديدة بل إنه قد يكون في بعض الأحيان هو الهدف من وجود العمل كله"(١).

وبالإضافة إلى ما سبق يرى ياسين نصيّر أن المكان يعني البعد المادي للواقع في الرواية، أي الحيز الذي تجري فيه الأحداث، فيعتقد ما يعتقده النفري "بأن المكان مؤنث" فما دام الحدث يجري فيه فهو مؤنث، بمعنى أنه مولد لفاعلية فكرية يوازي بها فعل الطبيعة، ويحمل من خلالها إرادات الناس وتوجيهاتهم، وبناءً على ذلك يتم ربط المكان بعمق وعي الراوي لواقعه(٢).

ويرى أيضاً أن كل مكان لم يجر عليه فعل الإنسان هو مكان مدان، والمكان المدان ما هو إلا ذلك الحيز البكر(٣).

فالعمل الروائي يخلق عالماً خيالياً يرتبط بعالم الواقع بدرجة أو بأخرى، ويقدم صورة للحياة عن طريق شخصيات معينة وأحداث بالذات تقع في مكان معين، كما أنه بإمكان الراوي أن يحاول بطرق شتى و بأساليب فنية متنوعة أن يخلق إيهاماً أو إيحاء بواقعية عالمه الخيالي وصدقه، فيصور المكان الذي يشهد أحداث روايته ويخلق الجوانب الخلفية المناسبة(٤).

وتنقل سيزا قاسم عن ميشيل بوتور ما يشير إلى أهمية المكان الروائي عندما يرى أن قراءة الرواية رحلة في عالم مختلف عن العالم الذي يعيش فيه القارئ، فمن اللحظة

---

(١) خالد حسين : شعرية المكان في الرواية الجديدة، ص ٧٨.

(٢) ياسين نصيّر: إشكالية المكان في النص الأدبي، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط١، ١٩٨٦، ص ١٥٥.

(٣) المرجع السابق، ص ١٥٥.

(٤) انجيل سمعان : دراسات في الرواية العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧، ط١، ص ٣٨، ص ٣٩.

الأولى يفتح فيها القارئ الكتاب ينتقل إلى عالم خيالي من صنع كلمات الروائي، ويقع هذا العالم في مناطق مغايرة للواقع المكاني المباشر الذي يتواجد فيه القارئ[1].

فترى أن المكان يمثل خلفية الأحداث التي تقع في الرواية، وهو إطار الأحداث، لذلك فهو مرتبط بالإدراك الحسي، فلا ينظر لصورة المكان على أنها حقيقة مجردة وإنما من خلال الأشياء التي تشغل الفراغ أو الحيز[2].

أما المكان عند حسن بحراوي فلا يوجد معزولاً عن باقي عناصر السرد وإنما يدخل في علاقات متعددة مع المكونات الحكائية الأخرى للسرد كالشخصيات والأحداث والرؤيات السردية.... . وعدم النظر إليه ضمن هذه العلاقات والصلات التي يقيمها يجعل من العسير فهم الدور النصي الذي ينهض به الفضاء الروائي داخل السرد[3].

فالرواية في أساسها قائمة على المحاكاة بالإضافة إلى أنّ الحدث يتطلب بالضرورة زماناً ومكاناً، إلا أنّ المكان الروائي هو الذي يستقطب جماع اهتمام الكاتب، وذلك لأن تعيين المكان في الرواية هو البؤرة الضرورية التي تدعم الحكي وتنهض به في كل عمل تخييلي. فظهور الشخصيات ونمو الأحداث التي تساهم فيها هو ما يساعد على تشكيل البناء المكاني في النص، فالمكان لا يتشكل إلا باختراق الأبطال له وليس هناك، بالنتيجة، أي مكان محدد مسبقاً وإنما تتشكل الأمكنة من خلال الأحداث التي يقوم بها الأبطال، وعلى هذا الأساس فإن بناء الفضاء الروائي يبدو مرتبطاً بخطية الأحداث السردية[4].

---

(١) سيزا قاسم : بناء الرواية دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤، ص ٧٤.

(٢) المصدر السابق، ص٧٦.

(٣) حسن بحراوي : بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٠، ط١، ص ٢٦.

(٤) المرجع السابق، ص ٢٩.

فالبنية الروائية لا تعتمد على عملية البناء نفسها فقط، بل تتعلق بكيفية تجمع وتركيب وتآلف المواد من أجل تكوين الشيء وخلقه لأغراض ووظائف معينة، فالبنية الأدبية ليست شيئاً حسياً يمكن إدراكه في الظاهر، حتى ولو حددنا خصائصها التي تمثل في عناصرها التركيبية، وإنما هي تصوُّر تجريدي يعتمد على الرموز وعمليات التوصيل التي تتعلق بالواقع المباشر، وتعد البنية ذاتها شيئاً وسيطاً يقوم فيما وراء الواقع المعيش[1].

ونستنتج مما سبق أن المكان في الرواية، ليس مكاناً معتاداً كالذي نعيش فيه أو نخترقه يومياً، ولكنه يتشكل كعنصر من بين العناصر المكونة للحدث الروائي. وسواء جاء في صورته مشهد وصفي أو إطار للأحداث، فإن مهمته الأساسية هي التنظيم الدرامي للأحداث. فشارل غريفل يعلن بأن الفضاء الروائي هو الذي يكتب القصة حتى قبل أن تسطرها يد المؤلف في قوله: "*إن المكان في الرواية هو خديم الدراما، فالإشارة إلى المكان تدل على أنه جرى أو سيجري به شيء ما، فمجرد الإشارة للمكان كافية لكي تجعلنا ننتظر قيام حدث ما، وذلك أنه ليس هناك مكان غير متورط في الأحداث*"[2].

بالإضافة إلى ذلك ما قاله فيليب هامون في تأثير البيئة على الشخصية من خلال قوله "*إن البيئة الموصوفة تؤثر على الشخصية و تحفزها على القيام بالأحداث وتدفع بها إلى الفعل حتى أنه يمكن القول بأن وصف البيئة هو وصف مستقبل الشخصية* " وأيضاً ما قاله جورج بلان، في خطابه حول علاقة الحدث بالمكان الروائي حينما يربط الحدث ربطاً دياليكيتكياً بالأمكنة فـ "حيث لا توجد أحداث لا توجد أمكنة"[3].

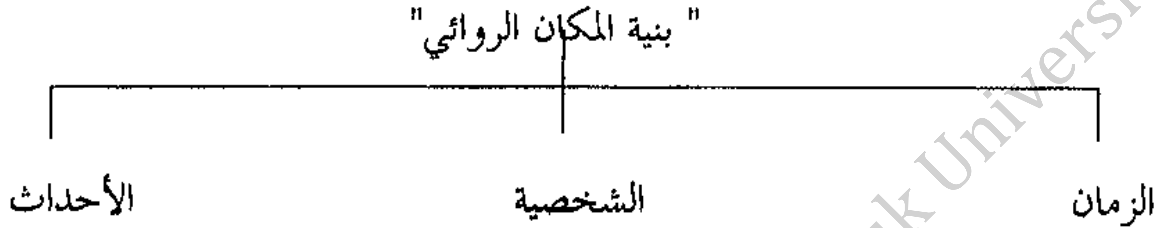
---

(1) صلاح فضل : نظرية البنائية في النقد الأدبي، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٨، ط١، ص ٢٢٩.

(2) حسن بحراوي : بنية الشكل الروائي، ص ٣٠.

(3) المرجع السابق، ص ٣٠.

بناءً على ما سبق يمكننا أن نقوم برسم شكل خطي يبين علاقة المكان بكل من الشخصية والحدث والزمان في البنية الروائية، حيث يوضح الشكل التالي اختراق الشخصية والحدث والزمان للمكان كي يكون خلفية لهم.



ويتطلب الحديث عن عمّان بوصفها مكاناً روائياً، قراءة نتاج كل من الروائيين الأردنيين، *جمال ناجي وزياد قاسم ومؤنس الرزاز وهاشم غرايبة وسميحة خريس.*

فهؤلاء الروائيون اهتموا بعنصر المكان في أدبهم الروائي، فبدا المكان محورياً بما يطرأ عليه من تغيرات عبر الأحداث من فترة زمنية إلى فترة أخرى، فشكل المكان ومثل الإطار العام لهذه الروايات.

فروايات الكتاب المشار إليهم بينت أثر البيئة على الشخصية من مكان إلى آخر، كما أنها تحدثت عن مدينة عمّان بشكل صريح وواضح دون اللجوء إلى الغموض أو التلميح، فجاء ذكر مدينة عمّان واضحاً منذ البداية في الروايات المطروحة، إلا في رواية "*مخلفات الزوابع الأخيرة*" لجمال ناجي[1]، التي صدرت عام ١٩٨٨م، حيث ورد ذكر مدينة عمّان في الرواية عندما تنتقل حياة أهل الوادي "*وادي الغجر*" من حياة بدائية بسيطة إلى حياة التمدن، بعد دخول الكهرباء إلى بيوت الغجر والفلاحين.

فالرواية تقوم على الالتقاء بين "عالم الغجر وعالم الفلاحين"، "سبلو" الغجري وزوجته "بهاج" وابنته "هاجر" من جهة و "عثمان أو بركة " وزوجته وأولاده وخاصة

(١) قاص وروائي أردني، ولد عام ١٩٥٤ في أريحا، أصدر العديد من الروايات من أهمها: الطرق على بلحارث، مخلفات الزوابع الأخيرة، الحياة على ذمة الموت، وقت، رجل خالي الذهن.

"حامد" أصغرهم. وذلك من خلال تصوير الراوي لبيئة جديدة في الأردن وهي "عالم الغجر"، إذ يتحدث عن نشأة الحياة في الوادي فيعرض لحياتهم الاجتماعية والظروف المأساوية التي عاشوها، من مثل امتلاك بيوتهم من المالك الوهمي للوادي، وفي تعرضهم لاعتداءات اللصوص كما في النص التالي: "ابتدع نظاماً لبيع الأرض، حيث حدد للمتر الواحد سعراً ثابتاً قيمته عشرون قرشاً، واضطر السكان الجدد إلى دفع أثمان الأراضي التي اختاروا إقامة بيوتهم عليها!" [1]، فكان المالك الوهمي عثمان أبو بركة، فاستولى على الأرض دون أن يعرف من هو المالك الحقيقي الذي ظهر فيما بعد.

كما أن أهل الوادي عانوا قسوة الظروف والإهمال، وفي تعرض حلم الاستقرار للتقويض على يد المالك الحقيقي الذي أدرك أن للوادي قيمة، وأن على سكانه أن يدفعوا ثمن الأرض، فعانوا عذاب المحافظة على بيوتهم التي أنفقوا عليها "ذخيرة العمر" وذلك على النحو التالي " فوجئ أبو سلمان بالخبر الذي قذفه معروف في وجهه ووجه ابنه، حيث قال، بأنه تقدم إلى المحكمة بقضية ضد جميع سكان الوادي منذ أيام، وأن التفاصيل كلها موجودة عند محاميه الذي تولى القضية، ثم أردف : ألم يصلكم بلاغ المحكمة بهذا الخصوص؟ وقبل أن يتلقى الإجابة أكمل بخبث ثم مد قال لكما بأنني أريد بيع الأرض في الوادي؟"[2].

فتبدأ الرواية بانتقال "سبلو الغجري" وزوجته " هاج" للسكن في وادي غير ذي زرع في طرف المدينة بعيداً عن مجتمع الغجر، حيث لا يسكن هناك سوى رجل فلاح يدعى "عثمان أبو بركة" وزوجته و أولاده، ثم يشرع جمال ناجي بإقامة هذا المكان ووضعه بصورة بسيطة ودقيقة إثر انتقال عدد كبير من عائلات الغجر للسكن حول مسكن سبلو الغجري، وعدد كبير من عائلات الفلاحين حول مسكن عثمان أبو

---

(١) جمال ناجي : مخلفات الزوابع الأخيرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٨، ص ٣٤.

(٢) المصدر السابق، ص ١٤٦.

بركة، لتبدأ الحياة في الوادي، فكان عثمان يعطي هذه الأرض للساكنين الجدد مقابل الثمن دون أن يعطيهم ما يثبت ملكيتهم لها(١).

فاقترب هذا المكان من الحضارة المدنية من خلال امتلاك أجهزة التكنولوجيا الحديثة كالتلفاز والراديو وأدوات الكهرباء بشتى أنواعها، فتغيرت أحوال أهل الوادي عند دخول الكهرباء كما نقرأ في النص التالي: "كثير من الأشياء في الوادي تغيرت بدخول الكهرباء، وصار الناس يسهرون أكثر، ويتمشون في الطريق، ويتجمعون تحت أعمدة الكهرباء، وتم تركيب سماعتين للمسجد من التبرعات الأسبوعية المخصصة لصيانته، وكف المؤذن عن الآذان على سطحه بعد أن تعلم كيف ومتى يفتح الميكروفون..... على أن المظهر الصارخ الذي رافق الكهرباء، هو دخول بعض الأجهزة الكهربائية إلى بيوت الوادي! ...... أبو سلمان هو أول من أدخل التلفاز إلى الوادي، إذ اقتنى تلفازين واحداً لبيته، والثاني للمقهى الذي استقطب الكثيرين من الرواد الجدد!" (٢).

فاستطاع وادي الغجر/ المكان الجديد "المتخيل" أن يطيح بحياة الترحل التي ألفها مجتمع الغجر الذي يعشق حياة التنقل والاستقرار، واستطاع أن يشكل علاقات اجتماعية جديدة بين السكان. واستطاع عثمان أبو بركة أن يتحكم بهذا المجتمع الجديد، إذ فرض سطوته عليه وأورث هذه السطوة لابنه حامد ثم حفيده سلمان أبو بركة، هذا الرجل الذي استطاع أن يحكم قبضته على سكان الوادي، وأن يفرض وجوداً اجتماعياً واقتصادياً بارزين، تحكم خلالهما في مجريات الحياة في الوادي إلى أن ظهر مالك الأرض الحقيقي الإقطاعي "معروف المعروف" الذي أحدث هزة عصفت بالاستقرار المؤقت الذي عاشه الوادي مدة طويلة(٣).

---

(١) عوني الفاعوري : أثر السياسة في الرواية الأردنية، دار الفارس للنشر، ط١، ١٩٩٩، ص ٦٥.

(٢) جمال ناجي : مخلفات الزوابع الأخيرة، ص ٩١.

(٣) عوني الفاعوري : أثر السياسة في الرواية الأردنية، ص ٦٥.

فلم يستطع سكان الوادي / المكان الوقوف صفاً واحداً في وجه مطالب هذا الإقطاعي المتمثلة بدفع سعر الأرض بالثمن الحالي، وإلا سيقوم بقطع الماء والكهرباء، ومن ثم سيقوم بهدم هذه البيوت على رؤوس ساكنيها إن امتنعوا عن الدفع[1].

فمما سبق نلاحظ أن الراوي غاص في أعماق المكان، كما صور بصدق تلك التطورات الاجتماعية والاقتصادية مبيناً أثرها في حياة الناس.

أما رواية "*أبناء القلعة*" لزياد قاسم[2] التي صدرت عام ١٩٨٩، فيبرز المكان بشكل مميز، حيث تتجمع الأدوار والأحداث كلها في مكان واحد تقريباً وهو "حي القلعة" في عمّان، فتقوم بتطوير نفسها دون انتظار أي أحد، أو أخذ موافقة أي أحد. فعلى الرغم من كثرة الحشد الهائل لأسماء الشخصيات في المكان الروائي إلا أن الراوي برع في السيطرة على مجريات الأحداث في الرواية.

تبدأ أحداث الراوي في "حي القلعة" حيث يفاجئنا الراوي بالمأساة الفاجعة التي هوت على رأس أسرة "شمس الدين" في القلعة، فشمس الدين يمثل الشخصية الشركسية التي استقرت في عمّان، كما أنه يمثل الفروسية والشجاعة والعشق معاً، ومع ذلك نراه يجد نفسه أمام كارثة هزته من الأعماق، فبعد أن كان يمني النفس بالزواج من فتاة شامية جميلة هي "نجاح" ابنة أبي عبده صاحب المقهى، وسط ضيق ابنه "فخري" ونفوره نجده يتلقى الخبر المفجع بمقتل ابنته وصهره صلاح الدين اللذين رافقا ابنته الأخرى فوزية لشراء جهاز العرس من الشام، فيما تفقد فوزية إحدى ساقيها ويتخلى عنها خطيبها وهو أخو زوج شقيقتها، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل يرحل شمس الدين هو الآخر سريعاً، لتعيش فوزية حزنها ومأساتها مع أخيها فخري، وابني شقيقتها اللذين

---

(١) عوني الفاعوري : أثر السياسة في الرواية الأردنية، ص ٦٦.

(٢) ولد زياد قاسم في مدينة عمان، عام ١٩٤٥م، ودرس المرحلة الأساسية والثانوية فيها، وأكمل دراسته في الجامعة الأردنية، متخصصاً بالمحاسبة، ثم سافر إلى بريطانيا ليكمل دراسته العليا ويحصل على درجة الماجستير في المحاسبة ويستقر بعد ذلك في عمان، أصدر مجموعة من الروايات من أهمها : المدير العام، أبناء القلعة، الزوبعة، العرين، الخاسرون.

قدما بعد النكبة بصحبة جدهما في حي القلعة أحد أحياء عمّان وذلك كالتالي: "وحلّت بالفلسطينيين نكبتهم الأولى، وأخذت أفواج اللاجئين تصل إلى عمّان، فاستقبلتهم المدينة بتلالها المكشوفة ووديانها الضيقة، وأطلالها المهترئة، فأسرع الناس إلى جوانب السيل، والسفوح القريبة منه ينصبون خيامهم، ويرفعون عرائشهم، ويبنون أكواخهم، ويخنقون ذكرى الهجرة في إرادة الحياة. فتنفست عمّان أنفاس الخلود وأضافت لترابها وجوداً إلى وجود عندما أدرك فارس ونايف جبل القلعة في يوم من أيام أيلول، ليودعهم جدهم لأبيهم أمانة في عنق فوزية ويعود إلى مدينته حيفا"(١).

وحول هذه الأسرة تقوم حياة حي بأكمله، جاء سكانه من أنحاء مختلفة: "منعش" صاحب مصنع الكازوز جاء من "يافا" بعد النكبة و "أبو عبده" صاحب المقهى من "الشام" و "حران" البدوي المرابي و "عواد النمر" الذي جمع ثروة من تهريب اليهود من سوريا والعراق إلى فلسطين و "أنور علي" تاجر الإطارات وصاحب النقليات الذي جاء من حيفا إلى عمّان و "لطفي عيسى" الذي كان يتاجر بجسد "سمورة" والأستاذ "منصور" وابنه "برجس" و "جورج" صديق "فارس" في الحزب، و "عمران" الأبله و "محارب" البلطجي و "خالد الملا" المحاسب الذي جاء من بغداد، وزوجته " أم مالك" التي أصبحت بعد موته زوجةً لـ "أنور علي" ثم عشيقة لفخري و "بهية" و "مالك" صديق فخري وأسماء أخرى كثيرة أهمها "أبو وداد" صاحب الجريدة و "مصلح كركر" المحرر الثقافي فيها.

وبهذا الكم من الأجناس احتضنت عمّان ضيوفها بالحب والوفاء من داخل البلاد "كحران" البدوي كما جاء كالتالي: "بدوي جاء إلى المدينة قبل نيف وثلاثين عاماً، بعد أن استولى أخوته من أبيه على ميراث الأب"(٢).

---

(١) زياد قاسم : أبناء القلعة، مديرية المكتبات والوثائق الوطنية، ط١، ١٩٨٩، ص ١٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٣١.

فاختيار الروائي للقلعة مكاناً روائياً اختيار موفق، فللقلعة جذورها، وللقلعة تاريخها، وللقلعة عتبتها بتأثير ما تعاقبت عليها من أمم ذات حضارات، وللقلعة إطلالتها على مدينة عمّان، وللقلعة طبيعتها وقربها من السيل الذي يحسب له سكانها ألف حساب.

وعند الانتقال إلى رواية "*جمعة القفاري*" لمؤنس الرزاز*، التي صدرت عام ١٩٩٠ نراه يميز بين نوعين من الاستخدام المكاني في هذه الرواية من خلال: النمط الأول أو النوع الأول هو المكان الجغرافي، شبه الحيادي في موقعه داخل النص وهو غالباً ما يسرد على لسان إحدى الشخصيات كجغرافيا مستقلة بذاتها أو كأداة قياس المعرفة لمدى إحدى الشخصيات بالمكان العام الذي ينتمي إليه، من مثل: عمّان، جبل النظيف، جبل النزهة، عمّان الغربية، قصر عمرة، ومختلف المدن والقرى التي ترد في النص، حيث أن هذا النوع من المكان لا يوجد له في النص تواصل حقيقي لامع المشهد الروائي، ولامع الشخصية ذاتها، فهو يرد بصفته المعرفية- الحيادية، أي بصفته الجغرافية الموضوعية. من ذلك ما يرد في حديث "الجزار" مع جمعة حين يقول[1]:"إن "أدر" أو "الكرك" أو "الرمثا" أو "السلط" أو "قفقفا" أو "الطفيلة"... الخ، تجسد روح الأردن أكثر من عمّان... أنت طبعاً لا تعرف "الربة" أو " أدر" أو " الشوبك" أنت لا تعرف سوى عمّان[2].

---

* هو روائي أردني من مواليد عمان، درس الفلسفة في بيروت ثم بغداد عمل مستشاراً لوزير الثقافة ثم رئيس تحرير مجلة أفكار، وأصدر عدة روايات من أهمها : أحياء في البحر الميت، متاهة الأعراب في ناطحات السحاب، وجمعة القفاري، والذاكرة المستباحة، سلطان النوم وزرقاء اليمامة، اعترافات كاتم صوت، الشظايا والفسيفساء، ومذكرات ديناصور.

(١) عبدالله رضوان : أسئلة الرواية الأردنية دراسة في أدب مؤنس الرزاز، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ط٢، ص ١١٧.

(٢) مؤنس الرزاز : جمعة القفاري يوميات نكرة، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ط١، ١٩٩٠، ص ١١٩.

فهذا النمط من الاستخدام المكاني لا يمكن اعتباره مكاناً روائياً، وإنما هو مكان معرفي يشي بالجغرافيا أكثر مما يتداخل مع هموم البطل ووضعه النفسي – الاجتماعي، أما النمط الثاني أو النوع الثاني هو ما يسمى بالمكان الروائي، حيث يصبح المكان جزءاً من بنية المشهد الروائي بمجمله، متداخلاً مع زمن السرد، بحيث يصبح الانسجام قائماً بين زمن السرد / مكان السرد / والحدث نفسه، ومثال ذلك ما يلي: "هبطا نزلة اللويبدة التي أفضت بهما إلى شارع ' وادي السير' أو ' الأمير محمد' كما أصبح اسمه، وكان جمعة يفكر بالطلعة الحدودبة التي تكاد تنتصب مثل ظهر رياضي إلى الدوار الأول. وتخيل العرق الذي سينصب من جبهته ووجنتيه، وتخيل صوت اللهاث المرتفع، تنبأ محدثاً نفسه:

- وسيقول لي كثير الغلبة بلهجةٍ شامتة متشفية: شفت ماذا يفعل الإفراط في التدخين؟... وسيقول:

- أنت مثل باص قديم عجوز يرتقي المرتفعات"(1).

وهنا يظهر تأثير متغيرات المكان على الحدث، وتناغمه مع الحالة الخاصة بالبطل، في أحواء عمّان، التي حضنته دون أن يعترف بنفسه من يكون، فاعتبر جمعة نفسه نكره، ومن ذلك أيضاً خصوصية المكان الروائي في الباص، وغرفة الفندق، وغرفة المستشفى، والشقة حين كانت وداد تزور صديقها جمعة وكذلك خصوصية المكان الروائي في شقة الخطيبة الثانية، وشاطئ العقبة(2).

أما في روايته الأخرى "شظايا وفسيفساء"، التي صدرت عام ١٩٩٤م، فنلحظ اهتمام الراوي لمدينة عمّان وتركيزه على الأحداث الواقعة في عمّان، وذلك في الفترة الزمنية الممتدة بين الخمسينيات إلى التسعينيات من هذا القرن، فيشترك كل من عبد الكريم وسمير في زمن الاستقرار في عمّان، وقبل ذلك كان عبد الكريم يعيش في بيروت يمارس العمل السياسي، بينما سمير متنقلاً بين العواصم يمارس نشاطه الحزبي، فالزمن

---

(1) مؤنس الرزاز: جمعة القفاري يوميات نكرة، ص ١١٤.

(2) عبدالله رضوان: أسئلة الرواية الأردنية دراسة في أدب مؤنس الرزاز، ص ١١٨.

الحاضر هو الإقامة في عمَّان، وهو الغالب في الرواية، لأن الرواية تسعى إلى إبراز التحديات التي عملت وتعمل على تشظي الفرد والجماعة والوطن العربي عامة.

ففي هذه الرواية تبدو مدينة عمَّان مكاناً روائياً تسير فيها الأحداث، فهي على حد قول مؤنس أنها الملاذ والرحم في رواية "جمعة القفاري" وهنا يصفها بمدينة المتقاعدين، لما تتصف به من استقرار وأمان وذلك كالتالي :" *استقر في جبل المتقاعدين. جبل اللويبدة. صديقه الكاتب الأردني الذي تركه في بيروت قال له: إن عمَّان مدينة المتقاعدين*"(1).

ويشير الروائي إلى خاصية عمَّان في أنها تجمع بين جبالها شتى المنابت والأصول، وهذا يبدو واضحاً في هذا المجتزأ :" لم يكن سمير من سكان الجنوب، كان من سكان عمَّان الحبيبة التي يصر كثير من الناس على اعتبارها مدينة بلا أصل فأنت "كركي" تسكن في عمَّان أو "نابلسي" تعيش فيها، وهي الصبية اليتيمة المقطوعة من شجرة مثل حورية خارقة في حكاية خرافية تشرح النفس وتثير القلوب"(2).

ومما سبق نلاحظ أن روايات مؤنس الرزاز ركزت على التجربة السياسية بشكل عام في رواياته، خصوصاً التجربة العربية، فتحدث عن القوميين وعن الأحزاب، وذلك من أجل معالجة الهم القومي السائد في بعض الدول العربية.

وعند الحديث عن رواية "*دفاتر الطوفان*" لسميحة خريس*، التي صدرت عام ٢٠٠٣م، نلاحظ أن الرواية محملة بهموم كبيرة سادت الوطن العربي، لكنها كتابة محتفية كثيراً بمدينة عمَّان، بذكر جمالها وبساطة أهلها في الماضي. فالرواية جاءت لغتها عامية على لسان الأشخاص وقامت الروائية باستخدام التجسيد في حديث الحرير،

---

(1) مؤنس الرزاز : الأعمال الكاملة، الجزء الثاني، دار الفارس للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٣، ص ٥٥١.
(2) المصدر السابق، ص ٥٥٣.
* روائية وصحفية من الأردن، خريجة جامعة القاهرة ليسانس آداب – علم اجتماع، عملت رئيسة تحرير صحيفة عمان عام ٢٠٠٢م، ومستشاره في هيئة تحرير مجلة عمان، من أهم رواياتها : المدُّ، شجرة الفهود تقاسيم الحياة، شجرة الفهود تقاسيم العشق، ودفاتر الطوفان، وخشخاش.

والحلقوم والحبر، والحبال وغيرها بالحديث عن نفسها فجعلت الأشياء تتحدث كي تقرب ملامح الواقع المعاش بكل ما يحتويه، وذلك كالتالي كما جاء بالرواية حديث الحرير: "*حرير كريب أحمر !! هذا خلط لا أحبه بني، أنا الحرير، وما يسمونه الكريب، أو الساتان، يمكنني أن أفهم هذا الخلط المعيب حين يقع من بشر عاديين، أولئك الذين تتساوى لديهم الأشياء، ولا يدركون دلالة الأسماء، أما أن يكتب تجار الأقمشة مثل بدير أو الحمصي أو أبو قورة في دفاترهم بأني كريب، فهذا لا يغتفر...*" (١).

فابتدعت الروائية صيغة جديدة في الكتابة عن المكان، فتمثل ذلك في سرد قصة جماعة من أهل عمّان كانت حياتهم بسيطة أيام العشرينيات والثلاثينيات من القرن المنصرم، فكانت الألفة والمحبة تجمع بين المسلم والمسيحي، وبين العربي والشركي والأرميني في روح عالية من التعايش والتسامح. كل ذلك زمن كانت الأردن إمارة أثناء تحولها إلى دولة مستقلة بكياها وحدودها ونظامها.

ولو عدنا للحديث عن الأشياء المتعددة التي تحدثت عن نفسها لرأيناها تقرب لنا الواقع المحيط بنا. فتغير تلك الأدوات يؤدي بالضرورة إلى تغير الذات الفاعلة.

والأشياء ليست المستعملات فقط بل هي كذلك النهر، والمطر، والساحة، والرقص، والكعك، من خلال هذه الأشياء تصف سميحة ارتباط أهل عمّان بالأرض في بداية القرن الماضي، عندما كانت الحياة بسيطة أليفة قبل تحولها الجذري. و المطر الغامر هو من سيروي تحول المدينة وأهلها، وذلك عندما اجتاح الطوفان مدينة عمّان عام ١٩٣٨م، تغيرت حياة الناس وتحولت إلى الأسوأ وذلك كما جاء كالتالي: "*ارتبك رجال عمّان ونساؤها في البيوت، فما عدت أنقطع ولكني أواصل دون هدنة، لم يعودوا يستمتعون بجلسات شي الكستناء الوادعة، فمائي الذي كان يتسلل سرسوباً خجلاً من تحت الأبواب في البداية، راح يدفع أخشابها بعنف، ويدخل مثل لهب نار حركه الهواء، البيوت العالية وحدها نجت من دخول المياه المدمرة إلى الداخل، حاول أصحاب الدكاكين رفع ما أمكن من بضائعهم*

(١) سميحة خريس : دفاتر الطوفان، منشورات أمانة عمان، ط١، ٢٠٠٢، ص ٧.

عن الأرض إلى الأرفف و الطاولات، ونظر بائعو الأقمشة إلى اللفائف المبتلة بحسرة، وبإيمان الذي أيقن بقضاء ربه، احتسبوا خسارتهم تعويضاً عن سلامة أرواحهم، فأغلقوا دكاكينهم ولاذوا بالبيوت، وأطارت رياح شرسة هوجاء أسقف بيوتهم عويل الريح وهي ترفع مسطحات الزينكو، ثم تسقطها أرضاً، وتكسر قرميد بيت المفتي، وتطيح بالأعمدة الخشبية التي كانت تحمل مصابيح الشوارع...." (١).

ففي عمّان يجاور الشركسي الأرمني. وتسكن أسمهان المسيحية فوق تسامي الشركسي، ويتزوج المحامي عبد الرزاق المسلم من أسمهان المسيحية، وهكذا هي صورة عمّان المختلطة الأعراق والعقائد الموحدة النفس والآمال، تعايش كامل وجميل بين أهالي المدينة، فمع الطوفان في حديث المطر يظهر جيل جديد يختلف عن الجيل القديم، وبهذا يكون المكان وتحديداً عمّان مصدراً للاستقرار والعمل في الواقع المعاش.

وعند الانتقال إلى روايتها الأخرى " شجرة الفهود ... تقاسيم العشق". التي صدرت عام ٢٠٠٢م، نلاحظ أن هذا الجزء الثاني امتداد للجزء الأول، منذ بدأ فهد الأب تشكيل أحلامه في تكوين سلالة فهود على هضبة صغيرة جوار مدينة اربد الأردنية، فيتحقق ما يصبو إليه، فالقسم الأول يكاد يسيطر المكون الذكوري، ليس بعددهم إنما بأفعالهم وأدوارهم، وبخاصة فهد الرشيد وما أن يغيب الأب، إلا وينشط المكون الأنثوي في الجزء الثاني بما في ذلك من تحول في الرؤية السردية الذاتية لفريدة فهد الرشيد.

فما أن ينتهي حلم فهد الرشيد في تكوين سلالة بطريركية يكون هو زعيمها على الهضبة، يأتي أولاده فيما بعد مخيبين آمال والدهم في استمرار سلالة الفهود على هذه الأرض، فكانت البداية منذ أن ذهبوا إلى السلط لمتابعة دراستهم، ثم تطورت أفكارهم وانتقل بعضهم للعمل في عمّان، خاصة بعد أن تزوجوا واستقروا من أجل العمل، فهذه الأحداث الأخيرة تشكلت في الجزء الثاني للرواية، فتحول بيت فهد الرشيد القديم إلى

---

(١) سميحة خريس : دفاتر الطوفان، ص ٢٨٥.

مجرد ذكرى، فشهدت الرواية تفكك الأواصر، وانهيار البناء البطريركي للسلالة، فنشأت حساسيات جديدة ورغبات خاصة، وذلك في التركيز على الأبعاد الداخلية للشخصيات النسائية، فهنا يظهر الجيل الأحدث من النساء، حيث امتلكت المرأة نسبياً من حرية فقدها في الجزء الأول، فتغير الزمان والمكان أثر بشكل واضح على الشخصيات من خلال الطموح والتطلعات الفردية، أما الجيل الأول ظلّ أسير النمط البطريركي الذي يمسخ الإنسان إلى كائن واهم فاقد للوعي والإدراك وغير قادر إلا على نسج سلسلة لانهائية من الأوهام، وينتهي الأمر إلى نهايات مأساوية، فزوجات فهد الثلاث الكبيرات يمتن إما بمرض أو بحالة مزرية قوامها التهيؤات وغياب الإحساس بالزمن.

وفيما يريد كل فرد أن يحتمي باسم السلالة، يرفض في الوقت نفسه الانصياع لقانونها العرفي الذي سنه فهد الرشيد، ذلك القانون الذي انبثق عن حلمه بأنه على هضبة صخرية سيكون العالم عالمه، وعالم الفهود الذين سيأتون من بعده.

أيضاً ما جاء في رواية سميحة خريس عند الانتقال إلى عمَّان، تذكر الروائية هيئة المدينة وذلك كالتالي: "نهبط إلى شارع السلط في قلب عمَّان كأننا ننزل بحراً، نغوص في جوف المدينة تحيط بنا الأبنية على الجانبين، ألا يحتمل أن تقع؟ أن تطبق جانبيها على الممر الضيق فنموت؟ هواجس غريبة تنتابني وأنا أتأمل للجبلين، اللويبدة والحسين يرتفعان حولنا ونحن نمضي قدماً إلى وسط البلد..." (١).

فتغير المكان أدى بالضرورة إلى تغير الحياة بشكل كامل وذلك كما جاء كالتالي في مدينة عمَّان: "أصعب ما علي أن أتأقلم معه صوت الطائرات... في اربد يعني غارة، وفي عمَّان يعني مسافرين وقادمين... سياحاً وتجاراً... اعتياد المكان يعني أن أتحسسه... أفهمه وأرتبط بتفاصيله أكتشف روحه.... يحدث هذا على مهل"(٢).

---

(١) سميحة خريس : شجرة الفهود...تقاسيم العشق، دار الكندي للنشر، إربد، ٢٠٠٢، ط١، ص ٣٣-٣٤.
(٢) المصدر السابق، ص ٩٠.

فموقع الأحداث مدينة عمَّان وهذا الجزء يبين الفرق بين حياة أهل مدينة عمَّان وبين الحياة التي كانت سائدة في إربد، فعمَّان مدينة الانفتاح والحب والأمان والاستقرار العائلي لأسرةٍ صغيرة ليست ممتدة كما كانت في إربد.

وعند الانتقال لرواية "الشهبندر" لهاشم غرايبة*، التي صدرت عام ٢٠٠٣م، نراه يتحدث عن نفسه في البداية وعن ارتباط اسمه بالمدينة فالشاة تعني السيد عند العجم وبندر تعني المدينة عند المصريين، حيث كان يغضب إن ناداه أحد بهذا اللقب ولكن مع مرور الأيام في تألقه مع لعبة الشطرنج وتوسع تجارته وازدهار عمَّان، تعلم الشهبندر التعايش مع هذا اللقب وأحبه، حيث كان يشعر بأن هذا اللقب فضفاض عليه كما يشعر أن صفة المدينة فضفاضة على عمَّان.

فالراوي يروي أحداث حياته على لسانه، فتميز بالتجارة ولقب بشيخ التجار، فاشتهر بها بعد أن كان تاجراً للسكر ثم أصبح يدير أعمالاً واسعة وناجحة على الرغم من العثرات التي كان يمر بها ليصل إلى قمة نجاحه مثل والده الذي كان ينقل بضائع التجار على الجمال من سكر وأرز وشاي وبن وقمح وصوف وجلود.

وكان للشهبندر خمس بنات هنَّ : سلمى، وندى، وهدى، وليلى، كلثوم، فكان يكنى بأبي سلمى، حيث كان مسكنه هو وعائلته بداية في جبل القلعة ثم انتقلوا إلى المسكن الجديد في جبل عمَّان، وفي هذا المكان يصف الشهبندر بيته الجديد بعد الانتقال كالتالي: "*أنا منشغل بترتيب أوضاع أسرتي في سكني الجديد على سفع جبل عمَّان، حيث تركنا بيتنا القديم في جبل القلعة – بيتنا الرائض على حافة الجبل كما كانت تقول سلمى وهي طفلة ... الأرض المرتفعة تبدي ما عليها أكبر من حجمه الطبيعي. حيث أقف بباب الدكان، وأنظر إلى الغرب أستطيع أن أرى الجدار الشرقي لبيتي الجديد، المبني من حجر قباطية المائل*

---

* كاتب قصة ورواية ومسرحية من الأردن، ولد عام ١٩٥٣ في قرية حوارة شمالي الأردن، أكمل الدراسة الثانوية في مدارس مدينة إربد عام ١٩٧٠، تخرج في جامعة بغداد عام ١٩٧٥ بالعراق، ومن جامعة اليرموك عام ١٩٩٠، وهو أحد أعضاء رابطة الكتاب الأردنيين، وعضو هيئة تحرير مجلة عمان، ومن أهم رواياته : الشهبندر، وبيت الأسرار.

للحمرة، وتزهو نفسي بالقرميد الأحمر وهو يرمي بظله على مربع الشباك الصغير الداكن للمطبخ. أرى الآن ابنتي ليلى تلمع الحديد الأخضر لشباكيْ (المضيف) الطويلين المتجاورين كحارسين تركيين بخوذة مشتركة"(١).

فالبيت القديم أجره الشهبندر لإلياس أفندي، المعلّم بمدرسة الصناعة، حيث كان الحنين يراود الشهبندر إلى البيت القديم في حديثه وذلك كالتالي: "كنت أصطحب سلمى إلى السوق وهي طفلة ... سألها أحد أصدقائي ملاطفاً أين بيتكم؟ قالت: هناك -وأشارت إلى جبل القلعة- أترى ذلك البيت الذي يرقص قرب الغيمة، أنظر البيت الذي يشبك ذراعيه مع البيوت المجاورة..."(٢).

ثم يعود الشهبندر لوصف بيتهم القديم في عمّان كالتالي: "كان بيتنا على ريف جبل القلعة يصطف مع البيوت المتلاصقة عن يمينه ويساره، فتبدو مع تموج الأشجار من حولها وحركة الغيوم من فوقها كأنها تؤدي دبكة شعبية... للأطفال تصورات بسيطة لكنها فذة. دائماً أحن إلى بيتنا الذي ورثته عن أبي... زيارة إلياس أفندي تعني بالنسبة لي التواصل مع بيتنا القديم بين هذه الخرائب والأعمدة الأثرية، والمعابد الدارسة، قضيت أيام طفولتي ولطالما أثارت مخيلتي صغيراً، وحرضتني على البحث والتنقيب يافعاً..." (٣).

فأحداث هذه الرواية تركز على التجارة في مدينة عمّان كذلك هو الحال عند سميحة خريس في روايتها "دفاتر الطوفان"، التي اهتمت بالتجارة في مدينة عمّان، منذ البدايات كيف كانت، وكيف أصبحت مع التقدم والرقي الحضاري والفكري في مدينة عمّان، مع تواجد أجناس مختلفة من الناس في عمّان.

---

(١) هاشم غرايبة : الشهبندر، دار الآداب، بيروت، ط١، ٢٠٠٣، ص ٣٠.

(٢) المصدر السابق، ص٤٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٦-٤٧.

٢-دور المكان في تشكيل الشخصية والحدث :

من الصعوبة بمكان التحدث عن المكان الروائي بعيداً عن القوى التي تؤمه وتقيم فيه؛ لأن وجود المكان مرهون بالشخصيات النصية أو الفواعل حسب مصطلح غريماس، فلا معنى للمكان إلا حين يعاش، أي حين ينسرب وينفذ إلى مكان التجربة الحياتية للمجتمعات البشرية، ويصبح عنصراً من عناصر المنظومة الثقافية، إذ المكان في الأصل يقوم على مبدأ علائقي (بنيوسيميائي) يكتب دلالاته وأنطولوجيته وبنيته من خلال اشتغال المكونات السردية وما يترتب على ذلك من تنوع رؤيوي وتاريخي للمكان[1].

إن تشييد الفضاء الروائي يفترض ديناميات متنوعة للقوى الفاعلة (الشخصيات) من استقرار، واختراق، وانتقال، وبناء، ورحيل، ودفاع، وتشبث مع ممارسات أيضاً على صعيد العلاقات الإنسانية، وربما كانت الحاجة إلى الثبات والتأصل في المكان من أولى الأفكار التي تراود أذهان الروائيين وهم يهمون بتشييد الفضاء الروائي؛ لأن الاستقرار في مكان ما من مساحة المكان الروائي يحوله إلى بؤرة رئيسية، مهيأة لجريان الحدث الروائي، فتبئير المكان من شأنه ألا يستقطب الحدث والشخصيات والرؤى فحسب، وإنما يستقطب المتلقى أيضاً إلى عوالم فعالة من التخييل، فالرواية تسبنى من حيث مستوى المكان على ثنائيات متضادة أهمها: الاستقرار – الانتقال، بيد أن الاستقرار يأتي أولاً لكونه من أولى حاجات الكائن الإنساني لتأسيس وإنتاج مكان إنساني وجمالي: "حيث أن الإنسان يعلن دائماً عن حاجته إلى إقرار وجوده والبرهنة على كينونته من خلال الإقامة في مكان ثابت سعياً وراء رغبة متأصلة في الاستقرار وطلب الأمن للذات". وعلى الراوي أن يضع ذلك في صلب إستراتيجية لبناء المكان، إذ إنّ أمكنة الاستقرار أو الأمكنة البؤرية لا تنفك أن تبث حزمة من الدالات المتشظية التي تكشف عن العوالم الخارجية والداخلية للقوى التي تسكن هذه الأماكن. وفي الحقيقة

(١) خالد حسين : شعرية المكان في الرواية الجديدة الخطاب الروائي لإدوارد الخراط نموذجاً، ص ٩٨-٩٩.

تمثل أمكنة الاستقرار (العلبة السوداء) التي تنطوي على أسرار الشخصيات في النص، وفي ضوء ذلك، فإن المكان لا يكتب دلالاته السطحية والعميقة والرمزية إلا حين يصبح مجالاً وحيزاً للقوى الفاعلة / العاملة بصراعاتها ورغباتها وأحداثها وبكلمة أدق بفاعليات الحياة والموت، ومن غير ذلك لا يمكن التكلم عن أمكنة روائية ذات قيمة، لأن المكان مرهون بحضور الشخصية بأفعالها و أحداثها "فحيث لا توجد أحداث لا توجد أمكنة"، حيث الفاعل بوصفه قوة مؤثرة فيه، و متأثرة بمحيطها — وحسب لوحة غريماس العاملية — يعيش حالتي اتصال وانفصال مع وعن موضوعها، وكلا الفعلين / الحدثين، لا يتحققان إلا في حيز مكاني، فحركة القوى الفاعلة وهي تمضي للاتصال بموضوعاتها أو الانفصال عنها، هي التي تنبئ القارئ المتلقي بطبيعة المكان الذي يحتويها، فحينها نتابع حركة الشخصيات ينشأ لدينا بصورة غير مباشرة إحساس بوجود المكان[1].

لذلك فإن تأسيس المكان الروائي إنما يرتبط بنهوض القوى الفاعلة في مسار السرد وما يرتبط بها من أحداث مختلفة، وما تقوم به من اختراقات في المكان للاتصال بموضوعاتها، وكأن المكان دون الحركة والحدث يبدو كما لو كان سديماً غير محدد الأبعاد والاتجاهات، فتأتي حركة القوى، فيتمفصل المكان عن اللامحدود ويتمايز ويحوز على شخصيته وملامحه الخاصة به، إذ ليس "هناك بالنتيجة، أي مكان محدد مسبقاً وإنما تتشكل الأمكنة من خلال الأحداث التي يقوم بها الأبطال ومن المميزات التي تخصهم". وتجدر الإشارة إلى أن المكان الروائي -ولكونه مكاناً لفظياً- فإنه يتبع قوانين اللغة، فهو لا ينبجس دفعة واحدة، وإنما يتكلل نموه من "خطية اللغة" وهذا قدره الأبدي، على خلاف الأمكنة البصرية (مسرح، فن تشكيلي، سينما) فهو مرتبط بقدرات اللغة التي تفرض قوانينها على تطورات الحدث وتشعباته، وعلى هذا النحو ينمو مع تقدم اللغة بتعاقب علاماتها يقول حسن بحراوي: "وعلى هذا الأساس فإن بناء الفضاء الروائي يبدو

---

(١) خالد حسين : شعرية المكان، ص ٩٩-١٠٠.

مرتبطاً بخطية الأحداث السردية" التي تخضع لقواعد اللغة في التكوين والتشكيل، كما يخضع هذا البناء لحركة الشخصيات الارتدادية نحو الأمام والخلف، أي بمجمل مناوراتها[1].

وإذا كان الحدث الروائي إشارة دالة على وجود الإنساني، فإنه يعمل على توفير الانسجام وتماسك النص، وبالتالي العمل على تكامل النسيج الروائي، لأنه من المستبعد أن يقوم خطاب روائي دون الحدث، الذي يجذّر القوى الفاعلة بفضاء النص، ويترتب على قيام هذا الحدث أو ذاك تطور الفعل الدرامي والحكائي، وفي هذا المنحى التلازمي بين المكان والحدث يقول عبد الوهاب زغدان :"*إنّ الصلة بين المكان والأحداث تلازمية إذ لا نتصور النظر إلى الأحداث بمعزل عن الأمكنة التي تدور فيها... وانطلاقاً من تحديد العلاقة بين هذين العنصرين يمكن النظر إلى فعل الشخصيات من حيث الدلالة على تطور الحكاية بين البداية والنهاية وهكذا تتشابك الأجزاء لتعرض علينا وحدة النص القصصي*"[2].

وفي ضوء ما تقدم، فإن المكان من خلال الحدث الروائي: لقاءات عابرة، صراعات قوى، أفعال وممارسات جنسية، ... ، ينتقل من حالة الركود والسكون إلى عالم مفعم بالحضور والحياة والحركة والمعنى، ويخلق كونه الدلالي، وبالتالي فإن طرحه لا يكون مجانياً حتى في تمظهراته و تجلياته الوصفية، وقيمته مرهونة بما سيجري فيه من أفعال وأحداث، لأنه في الأساس كائن ثابت جامد لا يتقن سوى الصمت، لا دلالة له إلا بتحريكه ونقله من مكان الساكن إلى مكان دينامي، وذلك لن يحدث إلا بوصفه حيزاً لتطلعات القوى الفاعلة واختراقاتها، ودون ذلك: "فليست له قيمة -كما يقول الناقد هنريم تيران- إلا إذا حصل فيه شيء فالمكان هو الذي يقتضي وجود الشخصيات و الأحداث وليس العكس". بيد أنّ القراءة ترى أنه بقدر ما يقتضي المكان الأحداث

---

(١) خالد حسين : شعرية المكان، ص ١٠٠-١٠١.

(٢) المرجع السابق، ص١٠١-١٠٢.

والشخصيات فهي أيضاً تقتضي حضور المكان، فالتفاعل بين الحدود الثلاثة هو الـذي يمنح الخطاب الروائي بنيته ومعناه[1].

إن تفكيكاً للبنية الروائية الجديدة من شأنه أن يكشف عن طبيعة التفاعـل بـين المكان والقوى الفاعلة، وبموجب هذا التفاعل العنيف في البنية الروائية الجديدة، أصـبح المكان الشاشة التي تجذب المتلقي عبر التصاعد الكثيف للفعل الدرامي بين القوى الفاعلة وفضاءاتها، حتى أنّ التفاعل أضحى مفتاحاً من مفاتيح الدخول إلى ردهات الخطـاب الروائي لسبر أغواره واستنطاق شبكة العلاقات الكائنة بين مفردات النص الروائي، وفي الواقع فإن المكان يتحول إلى فعل روائي أو موضوع الخطاب *Topic of discourse* الذي يتسلط على النص، يقول سعيد يقطين:" لا يصبح الفضاء فقط عالمـاً تتحـرك فيـه الشخصيات، أو ديكوراً يقع في الخلفية لأفعال الفاعلين كما أن يتقدم إلينا في العمـل المسرحي، ولكن يبدو وكذلك موضوعاً للفعل"[2].

ومن الأهمية الإشارة إلى أن التداخل والاندماج بين الشخصيات والمكان الروائي يمنح الفرصة لتبادل الدلالات بينهما على طول المسار السردي، حيث كـل منـهما يكتمل بالآخر، وبعبارة أدق:" فإن المكان الذي يبدو كمسرح فارغ ينادي الشخصية التي ستحتله. فالشخصية الروائية والحيز المكاني يتبادلان المعنى وكل يأخذ معناه من الآخر"[3].

ففي رواية "مخلفات الزوابع الأخيرة" لجمال ناجي، نجده يركز في التصوير علـى عدة نماذج بشرية من الغجر والفلاحين، ومن أبرز هذه النماذج "سبلو"، و "بهاج "، و "هاجار"، و "كياز"، و "سمار"، و "عرقي" من الغجر، و "عثمان أبو بركة"، و "حامد أبو بركة / أبو سلمان"، و "سلمان أبو بركة"، و "نزار أبو خنجر" مـن الفلاحـين،

---

(١) خالد حسين : شعرية المكان، ص ١٠٢.

(٢) المرجع السابق، ص ١٠٣.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٠٣.

حيث استطاع الراوي أن يحدد نقاط التفرد في كل من هذه الشخصيات، وأن يقدم ملامح عامة تلتقي في شخصيات أخرى تجعل هذه الشخصيات نماذج إنسانية تمثل مزاجاً من صفات متناقضة من الخير والشر. كما أنّ الراوي حاول أن يقيم تقابلاً بين الغجري والفلاح، وفصّل في الملامح النفسية والجسدية لكل منهما من خلال البيئة المعاشة. لذلك حاولت الرواية أن تغوص في أعماق المكان، وأن تصوّر بصدق التطورات الاجتماعية والاقتصادية، وأن تبين أثرها في حياة الناس، فأصبح المكان بارزاً وفي متناول القارئ، بيد أنّ الراوي أثقل الرواية بتفصيلات شديدة لم تكن مطلوبة طيلة الوقت، فكان الراوي أحياناً يلجأ إلى اجتراح أسطورته هو بدل أسطورة الشخصية على نحو ما نرى في احتفاء سبلو ببناء قبر بهاج، فتراه يعيش أحزانه في هذا السوادي كالتالي(١): " سبلو الفار أحس باختلافه دون أن يتساءل عما إذا كان هذا الإحساس جزءاً من جبلته، أم أن لكل كائن عالمه المختلف الخاص؟! كان يحس بتباعده عن الوادي على الرغم من التصاقه به! منذ أن قتلت بهاج، وهو يتناءى ويندّ في عالم مسكون بالمخاوف والتساؤلات، ويستمع إلى الأحاديث الغريبة التي تبثها روحه عبر دهاليز ذاكرته، فيحاول وقف نبض الأيام، يحاول الرجوع بها إلى لحظة واحدة متماسكة! يحاول الإمساك بنغمات بزقه الهاربة، لكنه لا يستطيع، لا يستطيع الخروج من حصار حاضره، وربما ماضيه!" (٢).

وأيضاً ما جاء كالتالي: "كان سبلو يعيش وفقاً لما تمليه ذاكرته العميقة، وخياله الشاسع، أما ما يقول الآخرون، فهذا ما لا مبرر للتفكير به، ولقد قام ببناء أربعة جدران حجرية ببوابة حديدية حول قبر بهاج، وزرع ثلاثاً من أشجار الكرمة التي كبرت بسرعة، فأورفت ظلالها فوق ذلك الحدث"(٣).

---

(١) إبراهيم السعافين: الرواية في الأردن، ص ١١٥-١١٦.

(٢) جمال ناجي: مخلفات الزوابع الأخيرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٨، ص ٥٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٥٧.

فالراوي يقيم روايته على أساس الانتقال من حياة البساطة والجهل إلى حياة التمدن والتطور الحضاري عند اقتحام شخصياته المدينة التي تنيرها الكهرباء، فالحياة الجديدة ظهرت بشكل جديد في الوادي عند قدوم الكهرباء، وهذا يبين أثر البيئة في نفوس البشر كالتالي: "كثير من الأشياء في الوادي تغيرت بدخول الكهرباء، وصار الناس يسهرون أكثر، ويتمشون في الطريق، ويتجمعون تحت أعمدة الكهرباء، وتمَّ تركيب سماعتين للمسجد من التبرعات الأسبوعية المخصصة لصيانته، وكف المؤذن عن الآذان على سطحه بعد أن تعلم كيف ومتى يفتح الميكروفون ويغلقه، واعتاد السكان سماع صوت المؤذن في كل بقاع الوادي عبر السماعتين، على أن المظهر الصارخ الذي رافق الكهرباء، هو دخول بعض الأجهزة الكهربائية إلى بيوت الوادي"(١).

ومما سبق نلاحظ مدى التغير في حياة الغجر عند دخول الكهرباء، وفي مواطن أخرى في الرواية نلاحظ أن الراوي تحدث عن بداية دخول الكهرباء، وكيف أثرت في نفوس البشر، فالكهرباء مرتبطة بالمكان بما يحدث فيه من متغيرات كالتالي:" هكذا فجأة تغير الليل في الوادي، وتحول السكون إلى ضجيج وصفير وزعيق! فجأة أخذ الشبان والصبية يتراكضون ويتصايحون بانفعال في الطريق وفي الأزقة المضاءة، كأنما بثت الكهرباء في أجسامهم وحناجرهم، طاقة لم يستطيعوا حيالها غير القفز، والصياح والصياح، والركض، ودخول البيوت من أجل مشاهدة نعمة الكهرباء، ونكهة التغير الجديد في حياتهم!" (٢).

وعند الانتقال إلى رواية "أبناء القلعة" لزياد قاسم، نراه يهتم بالمكان في بعض المواطن وتحديداً في حي القلعة، ففي بداية الرواية يقوم بوصف المكان "حي القلعة"، وبما يحيط حوله من أمكنة كـ "حد السيل" و "المدرج الروماني"، ونلاحظ أن الراوي يتحدث عن عمق العلاقة بين المكان والإنسان من انتماء وارتباط بين الطرفين، ومثال ذلك الحديث عن علاقة فارس وبرحس وجورج بالمكان / القلعة كالتالي: " كان فارس

---

(١) جمال ناجي : مخلفات الزوابع الأخيرة، ص ٩١.

(٢) المصدر السابق، ص ٩٠.

يجلس على حجر أسود كبير، مثقوب من منتصفه، يشبه حجر الرحى، وبجانبه جلس برجس ورفيق آخر جديد على الحزب مثلهما، بينما جورج وقد اقترب من الحافة أكثر، يجلس قبالتهم، وينظرون جميعاً إلى حيث المدينة صغيرة واضحة في القاع"(١).

فهذه الرواية تضمنت أكثر من أربعين شخصية رئيسية إلى جانب عشرات الشخصيات الثانوية، حيث مثل هذا الاختلاط البشري مدينة عمّان، غير أن أحداث الرواية لم تقتصر على مدينة عمّان وحدها، بل تمتد وفق نشأة شخصيات الرواية وحركتها، إلى حيفا ودمشق وبغداد، والقاهرة، وبيروت، ولندن.

فبين شخصيات الرواية نجد عائلة شمس الدين الشركسي (فوزية وفخري)، كما نجد عائلة أو عبده الشامي، وخليل منعش، وأنور علي الفلسطيني، وخالد العراقي، وأنطوان اللبناني، وحرّان البدوي، كما نجد جورج وتريز المسيحيين، إلى جانب منصور وبرجس وعواد النمر وغيرهم من أبناء البلد(٢).

وعند الانتقال لرواية "جمعة القفاري"، نلاحظ مجيئها على شكل يوميات "للبطل الإشكالي جمعة" بلغة بسيطة تعتمد على عدد من المشاهد المنفصلة المستقلة، والتي أضيف بعضها إلى بعض لتشكل معاً سيرة حياة "جمعة القفاري"، الذي كان يهرب من واقعة بحيث يبقى الرابط بينها هو شخصية جمعة ذاته، وأما الأحداث الصغيرة منها والأساسية والشخصيات الثانوية فهي ليست سوى عامل مساعد لإبراز الشخصية(٣).

فالراوي اعتمد على استخدام ضمير المتكلم وإن تعدد الرواة، فقدّم لنا شخصية جمعة على اعتباره بطلاً لا منتمياً وهارباً من مواجهة العالم، فيخوض المغامرات في أكثر من مكان ويحاول التكيف مع نفسه ومع محيطه لكنه يعجز.

---

(١) زياد قاسم : أبناء القلعة، مديرية المكتبات والوثائق الوطنية، ط١، ١٩٨٩، ص ٧٨.

(٢) نزيه أبو نضال : علامات على طريق الرواية في الأردن، دار أزمنة للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ١٩٩٦، ص ١٥٠.

(٣) نوال مساعدة : البناء الفني في روايات مؤنس الرزاز، دار الكرمل للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ٢٠٠٠، ص ١٠٦.

إن وضوح ملامح المكان ومحدوديته يؤكد تنامي الأحداث، في معرفة المكان وشهرته بين الناس، يبين ما يكون في الداخل، لا سيما وهي تعالج قضية الديمقراطية والتحولات الاجتماعية والفكرية، وعلاقتها بالبيئة المحلية لإكساب النص لحمة فنية متماسكة، فالمكان هو عمّان، جبالها، أزقتها، حاراتها، وحاناتها، وعزلة عمّان الغربية عن عمّان الشرقية، فتميزت الرواية بظهور المكان بشكل واضح في عدة مواطن، فنلاحظ تأثير متغيرات المكان على الحدث، وتناغمه مع الحالة الخاصة للبطل الأستاذ جمعة، ولاسيما خصوصية المكان في الفندق، وغرفة المستشفى، وشقة الخطيبة الثانية، وشاطئ العقبة، حتى غدا جمعة القفاري أقرب إلى البهلول يهرب من الأضواء باعتباره نكرة هامشي، رافضاً حياته وواقعه وذلك كالتالي[1]: "*ورحت أحلم بالوقائع العجيبة والمغامرات الخارقة والاكتشافات المثيرة التي خبرها نعمّان العموني في حياته ... قال أن حياته تشبه حياتي قال هذا الغلباوي أحمق*"[2].

ونرى أن الراوي يقدم أحداث روايته في مدينة عمّان، حيث الحنين إلى ماضيه، وذلك يبرز بوضوح كالتالي: " *هل تذكر عمّان حين كانت مدينة صغيرة؟ أهلها كأنهم عائلة واحدة؟ هل تذكر جبل اللويبدة حين كان من أرقى جبال عمّان؟*"[3].

ومما سبق نلاحظ أن البطل لا يترك لنفسه فرصة في الاحتكاك بالمجتمع، والواقع الذي يعيش فيه، فينطوي على نفسه دون اكتراث لما أصابه من انعزال شخصي، فكانت مجريات أحداثه تدور في مدينة عمّان على الأغلب.

أما في روايته "*الشظايا والفسيفساء*"، نلاحظ أن الأحداث قائمة في عمّان أيضاً بعد أن عاد عبد الكريم من بيروت، استقر في مدينة المتقاعدين على حد قوله عن مدينة عمّان، فاستأجر بيتاً في عمّان، وكأنه في هذا السكن لا يعيش في المدينة، فبيته بلا

---

(١) نوال مساعدة : البناء الفني في روايات مؤنس الرزاز، ص ١٠٧.
(٢) مؤنس الرزاز : جمعة القفاري، ص ٢٠١.
(٣) المصدر السابق، ص ٨.

جرس ولا هاتف، فقط كان يستخدم التلفاز، حتى من كثر انعزاله عن المجتمع، نستشعر عدم وجوده في البيت أيضاً، وكأن (الراوي) مؤنس الرزاز يتلذذ بشخصياته المنعزلة عن المجتمع، فكلا الروايتين "جمعة القفاري" و "الشظايا والفسيفساء" تظهر انعزال أبطالها في الرواية و بعدهم عن الحياة اليومية التي يعيشها الناس.

ومما جاء في الرواية ما يلي: "راح ينفق النهار بالتثاؤب اللذيذ. استأجر بيتاً قديماً لا هاتف فيه ولا جرس باب. في الليل يضطجع على أريكة ويتفرج على التلفزيون. أدمن التلفزيون، وأفلام الفيديو. حتى المسلسلات المصرية السخيفة صار يتابعها بمتعة. يقرأ صحف الصباح وهو يحتسي فنجان قهوة ثم يخرج إلى الحديقة الصغيرة فيسقي نباتاتها ويرسم أرضها"(١).

فالراوي يجعل من عمَّان، مدينةً جميلة تزهو بمن فيها، بما في ذلك من تحولات طرأت على المدينة من فترة زمنية إلى فترة زمنية أخرى، فعمَّان تملؤها الأحزاب ولكن بشكل حيادي وحر، فهي مدينة العرب.

فالراوي يجعل عمَّان بعيدة عن التشكيل الوزاري، أو بعبارة أخرى ليس لها ثقل في تشكيل الحكومات، بل العشائرية هي المعنية بتشكيل الوزارة، وعمَّان تخلو من العشائرية والجهوية، وهذا واضح في قول الراوي كالتالي: "عمَّان... طبعاً تبقى خارج الجغرافيا والعشيرة والجهوية. لا محل لها من إعراب التشكيل الوزاري، لأن عمَّان لا أصل لها، إنها مدينة القومية العربية الفاضلة"(٢).

إلا أنّ الراوي يجعل عمَّان تمتاز بالتشكل الحزبي، كما هو في هذا القول: "شعر طويل. ونفسها قصيرة. عمَّان تعج بمشاريع الأحزاب انتمى زوجها إلى حزبٍ يزعم أنه ليبرالي، فلحقت به وانتمت"(٣).

---

(١) مؤنس الرزاز : الأعمال الكاملة، ص ٥٥١.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٥٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٥٦.

وفي رواية " شجرة الفهود تقاسيم العشق"، نلاحظ بروز تأثير المكان في الشخصيات والأحداث فكان الفرق واضحاً بين الحياة في إربد والحياة في عمَّان، فكل ما هو محلل في عمَّان محرّم في إربد، على سبيل المثال، في كيفية اللبس، فنوار بنت مصطفى الهزايمه تتحرر في لبسها كوالدها ترفه، حيث كانت تعيش في عمَّان مع زوجها ولكن بعد وفاته، رحلت إلى إربد لتدير شؤون زوجها ولتربي ابنتها، وهذا ظهر بشكل واضح في الجزء الأول، أما في الجزء الثاني ترحل نوار وأولادها ووالدها إلى عمَّان، إلى المترل القديم للعيش فيه، فصورَّت الروائية هذا المكان كالتالي : "استبدلنا اتساع الهضبة وفضاء اللوز والزيتون بحاكورة مترِبة مسورة بجدران متصدعة، ولا يتورع الأولاد من قضاء حاجتهم هناك ويغطون مخلفاتهم بالأتربة مثل القطط... أحببت هذا البيت بالتدريج، إلا أنني اكتشفت الحب واعترفت به مرة واحدة، عندما جاء محمد نصر لزيارتنا..." (١).

أما ما جاء في اختلاف اللباس كان كالتالي : "جارتنا العروس تفتح نافذتها وتطل نصف عارية... عريها جعلني أظنها عروساً!! ولم تكن كذلك، قميص النوم الشفاف يبرز ثدييها وأعلى ساخرة.

- يا حرام .... ما عندها ملابس.

تفجعنا السيقان والأذرع العارية في عمَّان بعد اعتياد البنطلونات التي تستر اللحم تحت الفساتين في إربد."(٢).

أيضاً ما جاء من اختلاف في كيفية تقديم الطعام، وطريقة الأكل وذلك كالتالي: "أعادت عمَّان تفصيلي، سلختني عن الهضبة، هل انسلخت حقاً؟ مثلما تبدل أمي فراشه

(١) سميحة خريس : شجرة الفهود وتقاسيم العشق، ص ٩١.

(٢) المصدر السابق، ص ٩٢-٩٣.

الصوف الذي كنا ننقشه وننجده كل عام بفراسه الإسفنج أتبدل ... علمتني عمّان كيف أجلس إلى المائدة بأناقة، وكيف أقطع لقمتي بالسكين وأتناولها بالشوكة...." (١).

ومما سبق نلاحظ الفرق في طبيعة الحياة بين إربد وعمّان، فالجزء الثاني في هذه الرواية يظهر الانسلاخ والاستقلال الأسري، مع تطور المكان والانتقال من جيل قديم إلى جيل جديد، انفتح على الحياة بكل ما حوته من مظاهر اجتماعية وثقافية.

وفي رواية "دفاتر الطوفان" نجد أن أحاديث الأشياء عن نفسها هي التي تقرب الواقع فترتبط العناصر ببعضها البعض كي يكون تصوير الواقع حقيقياً وقريباً منا حتى نشعر به ونتلمسه في حياتنا فذكرت الروائية ارتباط بعض الأشياء بالمكان وتحديداً عمّان وذلك في حديث السكر، كالتالي:"ليس هناك مه مكان يشبه أقماع السكر مثل تلك المدينة، عمّان، كل شيء يتخذ هيئة هرم قمعي، كأنما تتشكل هذه التركيبة العشوائية مه بلورات سكرية، لمه يدرك الناس أبداً وجه الشبه بيني وبين المدينة الصغيرة، التي يسمون هضابها جبالاً، تطاولاً وزهواً، وهي لا تعدو أن تكون مجرد هضاب، مثل تل ألوف شكله تجمع ذرات السكر، في حين أن الحجارة والطين فقط يرفعان الجبال المتطاولة مع ذلك يفلح الأهالي كل يوم في تصور قصبة عمّان وسيلها محاطاً بالجبال"(٢).

لهذا نلاحظ أن "دفاتر الطوفان" لا تحكي عن طوفان من المطر فحسب بل تحكي عن تبدل الزمان، وتغير سلوك الناس، وتغير لون وطعم العشرة، وافتقاد العالم للقيم وسيادة الفردانية، والعدوانية، وانتشار العنف واللاتسامح، وذلك في حديث اليوم على النحو التالي:"راح السد الذي لم يقم ونشفت عمّان..... عندما توغلت الحفارات في الأرضه عام ٢٠٠٠ لضرب أساسات المركز الثقافي الملكي، نبع الماء، غمر شلال مه خير الماضي العمال الذيه تراكضوا في كل اتجاه حتى استوعبوا ما يحدث، إنه النهر الذي جافانا وغاب عنا، الذي قاطعنا وعاقبنا، لم يكه حبل مسعد وحده يلوح بين الحجارة، الماء أيضاً اندفع مشوقاً، وتم سحبه

---

(١) سميحة خريس : شجرة الفهود وتقاسيم العشق، ص ١٠٦.

(٢) سميحة خريس : دفاتر الطوفان، ص ٦٧.

بعد ذلك إلى جاووز خاص، لتشرب منه المناطق المحيطة... الأرض أذكى من الإنسان، الأرض أكثر حناناً، الأرض تسترد مالها بالكامل، لا تساوم ولا تجتزئ ولا ترتضي بأنصاف الحلول، ولا تخوض المعارك مع البشرية، تترك الأمر للريح والمطر للنار، لحماقة الإنسان ذاته، لحراكه المدمر، وشهوته المضبعة..." (١).

أما في رواية "الشهبندر"، نرى أنّ الراوي يركز على وصف عمّان -غالباً-، وذكر تاريخها بما مرت به من مراحل تاريخية، بالإضافة إلى ذكره الكثير من الأجناس المتعددة والمختلفة من شركس، وفلسطينيين، وسوريين، ولوليتا الطليانية اللبنانية المصرية من أصل إيطالي، وأما ميرزا علي فهو من أصل شركسي.

ومن خلال حديث الراوي عن الشهبندر، نراه يذكر عمق العلاقة بينه وبين زوجته وبناته الخمسة، فيذكر عمّان بجبالها وأسواقها المزدهرة وذلك كالتالي:" قبل أن يكتسب سوق المدينة المركزي إسم سوق السكر نسبة إلى صاحبه يوسف السكّر، قبل أن يأتي الرز والشاي والبن ليعمّروا اثنتي عشرة دكاناً، ستة على اليمين، ومثلها على اليسار، كانت عمّان تعشقني..." (٢).

أيضاً ما جاء كالتالي: "سوق السكر (سوق كل شيء). سوق البخارية (للإكسسوارات وأدوات الزينة). سوق وادي السرور (سوق اللذة المركزي). سوق الخضار (للخضار والفواكه واللحوم) سوق اليمنية (للأشياء المستعملة). سوق الغلال (الحبوب والتبن وتوابعها). سوق الحلال (للغنم و البقر والخيل والحمير) سوق الصاغة (للذهب والفضة والخرز) سوق السعادة (لتجهيز العرسان) سوق الأنتيكا (للخردوات)، وسوق مواد البناء الحديث (إسمنت وحديد وخشب ومسامير)" (٣).

---

(١) سميحة خريس : دفاتر الطوفان، ص ٢٩٢.

(٢) هاشم غرايبة : الشهبندر، ص ١٦٢.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٨٠-٢٨١.

فتزدهر عمَّان بتجارتها، والقطار عصبها النابض، ويحيط بالشهبندر الكثير من التجار ومنهم : سليم الدقر، ومحسن العتال، وعبد الله النوري، ومجيد العبكيكي، فالأماكن متعددة في الرواية، فيذكر جبل القلعة، جبل عمَّان، اللويبدة، والزرقاء، فعمَّان كما يقول الشهبندر أثمن من كل البضائع و العطور، فالراوي يقوم أيضاً بتجسيد الأشياء كالدامر، والجوخ، والوتد، والثلج وغيرها.

فالشهبندر كان يعتقد أن الزراعة هي حياة عمَّان ولكن تغيرت الأوضاع لتزدهر عمَّان بتجارتها وذلك جاء كالتالي: "يقول أبي: تطوّر هذه المدينة عصيٌّ على الفهم، كنت أقول وأنا طفل صغير الزراعة سر عمَّان، والسيل شريانها الحي... ثم اقتنعت أن التجارة هي روح عمَّان، والقطار عصبها النابض... قطار عمَّان الجديد... لكن ما يحدث أن القطار يتراجع دوره ويضعف أداؤه، والمدينة تكبر وتزداد قوة"(١).

ومما سبق نلاحظ كيف كان للمكان دور مهم على الشخصيات والأحداث التي تسير بداخله، كما أن المكان يعتبر الأساس في سرد الأحداث، خاصة إن كان الحديث عن مدينةٍ ما.

٣-الأمكنة والفضاءات :

أ- الأمكنة المفتوحة :

- المدينة :

تعد المدينة ظاهرة اجتماعية، بالإضافة إلى كونها ظاهرة مكانية، فهي أكثر من مجرد جزء من أجزاء المجتمع، إذ تمثل حقيقة اجتماعية تعبر عن الممارسات الجمعية للسكان الذين يعيشون ويعملون معاً.

فالمدينة تاريخياً، هي البوتقة التي اختلطت وذابت داخلها الأجناس والشعوب والثقافات، إذ تجمع أناساً من أطراف الدنيا مختلفين، لذلك فقد تضخمت وأصبحت كائناً عضوياً كبيراً، واكتسبت اهتماماً كبيراً من جانب عدد من العلماء والمختصين،

---

(١) هاشم غرايبة : الشهبندر، ص ٢٨١.

لازديادها من حيث العدد والحجم، ولتأثيرها المباشر في بقية المناطق الأخرى غير المتحضرة، والتي تخرج عن نطاق المدينة.

فمن القرن السابع عشر، ازداد الاهتمام بالمدينة في كثير من الدراسات في مختلف التخصصات، مثل علم الإحصاء، والسكان، والاقتصاد، والإدارة، والتخطيط، والإصلاح الاجتماعي، كما اهتم الأخلاقيون بالمدينة، وعدّوها مجرد مجموعة من القيم، تجعلها مكاناً مرغوباً فيه أو مرغوباً عنه، لأنها مكان الوجود الإنساني.

وعندما نهتم بالمدينة المكان، يجب أن نهتم بها أيضاً من حيث كونها مرتبطة بالتحضر، لأن عملية التحضر مرتبطة بالبيئة والإنسان[1].

فالسلوك الإنساني يؤثر ويتأثر إلى حد ما بالبيئة المحيطة به، لذلك -من الواجب ذكره هنا- أن أشكالاً معينة للسلوك، ربما تؤدي إلى إحداث تغير في البيئة، وبالتالي يمكن تعديل المثيرات التي تؤثر في السلوك المكاني الذي تقوم به.

ومن الطبيعي أن يتأثر الإنسان بالبيئة ويؤثر بها، ولا يجوز بأي شكل من الأشكال، فرض مكان ما على أي إنسان فقد خلقه الله ﷻ، وميزه عن غيره من الكائنات، بجانب معنوي يتألف من العقل والروح، لذلك، فهو يسخر قواه الجسمية والفكرية لإشباع حاجاته العضوية والأمنية، في الواقع الذي يتماشى مع مصالحه الشخصية، فنراه في صراع دائم مع البيئة الطبيعية من جهة، ومع نفسه من جهة أخرى، ولا ينتهي هذا الصراع إلا إذا تم التآلف بين الطرفين.

فعملية التحضر عملية صعبة جداً، قد تؤدي أحياناً إلى دمار المتحضر وضياعه، فالانتقال من حياة الريف إلى حياة المدينة، وارتباط ذلك بالتغيرات المصاحبة في نوع المهنة -الذي يؤدي إلى التغير في مستوى المعيشة فضلاً عن انتقال الأفراد من بيئة يكثر

(١) غدير عثمان الخروبي : المكان في رواية "مدن الملح" لعبدالرحمن منيف، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ص ١٦-١٧.

فيها التأثر بقوى البيئة الطبيعية إلى بيئة أخرى لا يوجد لهذه القوى أية أهمية -كل ذلك يؤدي إلى حدوث تغير جذري في حياة الإنسان[1].

وعلى صعيد الروايات الأردنية جاءت المدينة بقمة ازدهارها وجمالها بكل ما تحويه من طبيعة خلابة ومن أسواق وشوارع متلألئة بأضوائها الخلابة، فجاءت عمَّان كاملة برقيها الحضاري والثقافي والجمالي، وبعلاقاتها الاجتماعية المتميزة بين الأجناس التي تعيش فيها.

ففي رواية "*مخلفات الزوابع الأخيرة*" يكتسب المكان / المدينة أهمية خاصة لدى ناجي في هذه الرواية؛ لأن الرواية ترتكز على المكان بشكل أساسي، بل إنها تمثل صراع الإنسان حول المكان، حيث تقوم الشخصية بخلقه ويصبح مسألة مصيرية استقرارية، لجميع الشخصيات في الرواية، فسبلو الغجري يمثل فاتحة التشكيل المكاني / المدينة ضمن رؤية شخصية نابعة من مكوناتها النفسية والاجتماعية والفكرية، وكانت بداية البناء/ البيت عند هذه الشخصية تأخذ دلالاتها الخاصة من خلال الوصف[2]: "**ابتعاد المكان عن مهاب الرياح وعن كهوف اللصوص، واستخدامه لكميات من الأسمنت ليكون البناء قوياً**"[3]، ثم يقول الراوي في موطن آخر: "**انتظروا يومين قبل أن يحكموا بناء الحجارة التي لم تذر للريح أو المطر أو حتى لأصغر الحشرات فرصة الشرب من تلك الجدران**"[4].

لهذا نرى أن الروائي جمال ناجي ينشئ مدينة جديدة، في وادٍ مهجور، يسكنه الغجر، الآتون من أعماق الأمكنة المجهولة، ليؤسس من خلالهم تصوراً للمكان النامي،

(١) غدير عثمان الخروبي : المكان في رواية "مدن الملح" لعبدالرحمن منيف، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ص ١٦-١٧.

(٢) ناصر يعقوب : الرؤية والتشكيل دراسة في فن جمال ناجي الروائي، دار الفارس للنشر، عمان، ط١، ٢٠٠١، ص ٤٨.

(٣) جمال ناجي : مخلفات الزوابع الأخيرة، ص ١٣.

(٤) المصدر السابق، ص ١٥-١٦.

وها هي المدينة تنمو وتصبح حقيقة واقعية، بعض سكانها من الغجر يستوطنونها كسكانها، وبعضهم يغادرها محاكياً غريزة الرحيل من المكان(١).

فكان اعتماد الغجر على المدينة في بعض الأحيان من أجل الكسب، وذلك متمثل في إقامتهم ومشاركتهم للاحتفالات في المدينة كالتالي: " كيف تمكن سبلو من النفاذ إلى المدينة؟ كيف عرف بيوتها كيف دالهم أعراسها ومناسباتها؟ .... وحين يقترب من أحد أحياء المدينة يبحث بعينيه وبأذنيه المنتصبتين عن ضوضاء الأعراس وأضوائها..... لقد لجأ سبلو إلى طريقة طريفة في فرض نفسه كعازف في تلك الأعراس، إذ ما أنّ يصل مكان العرس، حتى يقتحم ببزقه حلقة الغناء والرقص متخذاً مكاناً قريباً من الطبالين أو المغنيين، كأنما هو واحد منهم... "(٢).

أيضاً ما جاء كالتالي : عند انتقال بعض الغجر إلى أحد أحياء المدينة، بحثاً عن لقمة العيش، في أي عمل أو مهنة يقومون بها: "بحث غجر الوادي عن وسائل عيشهم في أحياء المدينة، بعضهم سجلوا أسماءهم عمال تنظيفات، بعضهم عملوا في مهن يدوية كالحدادة وتبييض الأواني والنقش، وبعضهم تخصصوا في تسليك المجاري ونضح الحفر الامتصاصية في البيوت، وصار الناس يأتونهم من أحياء المدينة ليزيلوا عن بيوتهم كوابيس الروائح القذرة كلما فاضت تلك الحفر بما فيها، بعض النسوة عملن في كشف الطالع، والرقص في الأعراس والمناسبات، وقراءة الكف والفنجان والودع... " (٣).

أما في رواية "أبناء القلعة" يركز الراوي على ذكر مدينة عمّان، فهي تجمع خليطاً من البشر الذين سكنوها منذ أن كانت قرية صغيرة، والذين تدافعوا إليها بعد الحرب العالمية الثانية خاصة في حي القلعة.

---

(١) ياسين النصير : الرواية والمدينة : المركز – الضواحي – السلطة، مجلسة أدب ونقد، ص ١٠٩.
(٢) جمال ناجي : مخلفات الزوابع الأخيرة، ص ٢٦.
(٣) المصدر السابق، ص ٧٥.

وعلى أرضية هذه المدينة التي قدم إليها كل نموذج، وهو يحمل حرفتـه وتاريخـه وتكوينه الثقافي ومزاجه وموروثة، يبدأ الصراع على أساس المصالح والأفكـار والقـيم والمعتقدات والعروق والأجناس.

ومثال ذلك صاحب مصنع الكازوز "خليل منعش"، الذي تفوق بشهرته في صنع هذا الشراب، حيث ورثه عن والده في فلسطين، فكان يحب منافسة من حوله في صنع العصير وذلك كالتالي: "قبل منعش التحدي. هذا السوق سوقه. الحي حيه. المدينة مدينته، الناس كلهم زبائنه، اسم منعش سيبقى دائماً في المقدمة. لم يسرق أحد منه أسواقه وأناسه، ليس بالسهولة أن يحل اسم آخر محل اسم منعش. لا كوكاكولا ولا فروت آب ولا بطيخ. الناس يطلبون كازوزه حتى لو قصدوا بذلك الكوكو أو فروت آب. لقد رسخ اسم منعش في دماغ الناس، لم ينتزع أحد هذا الاسم العريق من مخيلتهم. كازوز منعش البلدي الوطني الأصيل"(١).

تحدث زياد قاسم أيضاً عن تحول المدينة، من مكان كانت تسوده الألفة والمحبـة بين الجميع وكأنهم يدّ واحدة إلى مكان تتزاحم فيه المصالح الشخصية إلى درجة تغـير فيها سلوك الناس، وأصبح الهمّ العربي هماً شخصياً مستقلاً بذاته، وذلك جاء كالتـالي: "ماذا حلّ بهذه المدينة...؟ هل تحولت إلى محطة قطار...؟ هل أصبحت صالة مطار...؟ ... ثم لماذا المذياع...؟ لماذا ينصتون بخشوع إلى الموسيقا...؟ لماذا الموسيقا...؟ العادات يا ناس ؟؟؟! .. الموسيقا حرام في المآتم... ماذا حصل لهذه المدينة ...؟ منذ متى أصبح الشعب مغرماً بالموسيقا...؟ ثم لماذا هذه الألحان الحزينة التي تثير القرف والغيظ والقنوط؟ لماذا تستمعون إليها بخشوع وشرود...؟ هذه ليست مدينته. أناسها ليسوا أناسه... مدينته قلعة عامرة بالحياة... لم تكن يوماً مقبرة... موسيقا ... موسيقا ... موسيقا. أناسه زوابع وصواعق وأعاصير ... لم

(١) زياد قاسم : أبناء القلعة، ص ٢٠١.

يكونوا يوماً نكرة ... لم يكونوا أبداً عربات وحقائب ورزماً وظلالاً... أنتم أشباح أشباح أشباح أشباح... تباً لهذه الموسيقا... لقد نوّمت المدينة، وأيقظت عفاريتها"(١).

وفي رواية "جمعة القفاري" نلاحظ أن المكان في هذه الرواية من أكثر عناصرها وضوحاً، خاصة في بداية الرواية، فيذكر جمعة مكان نشأته في المدينة في عمّان الغربية، حيث لم يغادرها إلا في سفرات سياحية إلى أوروبا أو للعلاج في أمريكا، فيظهر مدى حبه والتصاقه بعمّان، فهو لا يستطيع العيش إلا فيها كما يبدو، وفي الرواية من خلال قوله كالتالي: "بوسعك أن تعيش من المهد إلى اللحد في عمّان الغربية، دون أن تضطر إلى زيارة الشوبك، أو معرفة المفرق، أو المرور بالطفيلة"(٢).

فتبرز المدينة في الرواية بوصفها قوة علوية تهيمن على العلاقات الإنسانية وتصنعها مع نجاح المؤلف في المحافظة على مسافة كافية بين الرواية والواقع المعيش، فجمعة يرى المدينة في بعض الأيام خاصة الخميس ازدحام شوارعها، وهو يشبه هذا الازدحام بالمعضلات التي تدور في داخله، وذلك كما جاء كالتالي: " ثمة لا تعرفون عن جمعة، لقد كان مزدحماً بالمعضلات مثلما تزدحم شوارع وسط البلد أيام الخميس بالمارة والسيارات، ومقفراً من الصداقات مثل شوارع الأحياء الراقية أيام الجمعة"(٣).

إضافة إلى ما سبق نرى أن جمعة يسمي عمّان: "الرحم والملاذ"(٤)، فعاش حياة ترف وعز، وهذا الترف لم يبدُ ظاهراً عليه، فهو لا يعرف أحداً لأنه لم يترك لنفسه فرصةً في التكيف مع مدينته وذلك كما جاء كالتالي:"أنت ابن حياةٍ مترفة ونعيم ... ولكن ما يحيرني هو أنّ هذا النعيم لا يظهر على ملامحك، وهذا الترف لا يطل من عينيك ولا ينعكس على تصرفاتك"(٥).

---

(١) زياد قاسم : أبناء القلعة، ص ٣٩٤-٣٩٥.

(٢) مؤنس الرزاز : جمعة القفاري، ص ٥.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٣.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٤.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٤٠.

كما أنه يصف مدينة عمّان بأنها زنجية أفريقية عند حلول الظلام، لكــن دون أن تكون لها رائحة أفريقية وذلك كالتــالي: " *ثم أقبل الليل وما كانت تفوح منه رائحة إفريقية. الليل زنجي رائحته مثل رائحة المدينة ... التي لا رائحة لها*"(١).

وفي روايته "*الشظايا والفسيفساء*"، نلاحظ أن أحداث روايته تدور في مدينة عمّان، فالراوي يعشق مدينة عمّان ويتحسس ويتلذذ بما فيها من جماليات، لكنــه لا يــسمح لأحد أن يؤثر عليه، فتبقى عزلة عبد الكريم منعزلة، ومما يوضح إعجابه بالمدينة ما جاء كالتالي:" *عمَّان بلا بحر. يطوف في شوارع جبل اللويبدة. يمد نظره كأنما يتمشى على شاطئ. يمد نظره كأنما يرغب في مشاهدة أفق البحر البعيد. يرتطم بصره بالبيوت القديمة*"(٢).

فالراوي يذكر مدينة عمّان بأنه لا أصول تعود إليها إلا الشركس، وذلك جاء كالتالي:

-من أي بلدٍ أنت؟

قلت وأنا أحتسي قهوتي:-

- من عمَّان

قال وهو يلوح بيده قرفا وكأنه يطرد ذبابة:-

- طيب .... والدك؟

قلت باقتضاب:

- من عمَّان.

قال بلهجة تنم على نفاذ صبر:

- جدك؟

قلت بإصرار.

- من عمَّان.

---

(١) مؤنس الرزاز : جمعة القفاري، ص ١٦٥.

(٢) مؤنس الرزاز : الأعمال الكاملة، ص ٥٨٨.

قال وهو يتداعى مستسلماً مستيئساً.

- لا أحد أصله من عمّان سوى الشركس، عمّان مدينة بلا أصل أصلك... من أين؟"[1].

أما في رواية سميحة خريس "شجرة الفهود...تقاسيم العشق"، نلاحظ أن الأحداث مرتبطة بشكل ظاهر بما يدور حولها في المدينة، كما أنّ الرواية تبرز الفرق بين حياة أهل المدينة "عمّان" وبين إربد، فتنعكس ملامح المدينة على من يسكنونها في حديثهم وطريقة لباسهم وفي عاداتهم الاجتماعية التي تغيرت عند الانتقال إلى المدينة، ففي هذا الجزء جاءت الأحداث بشكل عام في المدينة/ المكان، ومما يدل على أثر البيئة على الناس ما يلي: "أهبط درج اللويبدة المكسر وفي السفح آخذ طريقي إلى اليسار، خطوات قليلة أجدني في العبدلي، وحول منطقة الكراجات العمومية أسمع صياح الباعة، وأشهد تزاحم الموظفين والطلبة وقوفهم مدعين النظام في خط "السرفيس" الطويل، تصل حافلات القرى بفلاحيها النشطين، تقلع حافلات أخرى... أبتاع كعكة وزعترا من بائع يائس حزين العيون "جبر الخواطر على الله" فلا أستطيع التهام هذه الكعكة الكبيرة المرشوشة بالسمسم وحدي، قد اقتسمها مع زميلة فيما بعد..."[2].

ونلاحظ في هذه الرواية أن الرواية جاءت أحداثها للتحدث بشكل غير مباشر عن أبناء الطبقة العليا والطبقات الأخرى المتواضعة وذلك كالتالي في مدينة عمّان: "بنات الشميساني وجبل عمّان يتصرفن بدلال ويصلن الجامعة في سياراتهن الصغيرة السبور، والطلبة أبناء القرى والأرياف مصابون بدهشة أزلية .... وأنا أتفرج"[3].

أيضاً بنت الكاتبة وجود أماكن تسمح للاختلاط دون خوف أو قلق كالجامعة وذلك كما جاء كالتالي: "الجامعة فرصتنا الأولى للاختلاط بعيداً عن المحارم! لم تعد أمي تخاف أولاد الجيران، وتفزع من خيالات الرجال"[4].

---

(١) مؤنس الرزاز : الأعمال الكاملة، ص ٥٩٩-٦٠٠.

(٢) سميحة خريس : شجرة الفهود ... تقاسيم العشق، ص ١٦٨.

(٣) المصدر السابق، ص ١٧٠.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٧٠.

وعلى هذا الأساس نلاحظ أن الروائية تعشق عمَّان بما فيها، فتعتبرها جوهرة نادرة، وأنه لا مثيل لها وذلك جاء كالتالي في روايتها: " عمَّان مسدلة على جبالها وبيوتها غلالة غبش شفيف، يازا الجلال .... الله الله يا عمَّان... جوهرة الدنيا وحبة قلبي"(١).

أما في روايتها "دفاتر الطوفان"، نجد أن الرواية ركزت أيضاً على مدينة عمَّان، فالروائية شديدة التعلق بعمَّان بما تحويه من مناظر جميلة بشوارعها وأسواقها وبيوتها وساكنيها من مختلف الأجناس، ومثال ذلك ما جاءت به في إعجابها بمدينة عمَّان كالتالي: "هواء عمَّان الساحر يلامس وجوههم الشابة. يصمتون دقائق منصتين إلى همس الفراغ وحلكة المساء"(٢). أيضاً ما جاء كالتالي: " لله درُّ عمَّان، ما ألين العيش فيها وأرخص التكاليف، يبيعون عشرين كيلو من دبس العنب أو البلع بدينار، ورطل السكر الأبيض الفرط، أو المكعبات بأربعة قروش، وخمس بيضات بقرش ... " (٣).

فالروائية ركزت على التجارة في المدينة، فبدونها لا تحيا عمَّان فتراها مثلت ذلك في الرواية على النحو التالي: " وهاي دخلك مدينة؟؟ عمركو حسيتوا شو هالذوق !! سوق القماش بجنب سوق الحلال بجنب الخضار، فساتين وبدلات جنب محلات شوي الكفتة والكباب، وفوق السكر والشاي الحكمة ومكاتب المحامين؟؟"(٤).

فتتحدث الروائية عن الزراعة التي ولّت، ولم يعد لها قيمة كبرى كما كانت بالماضي، ففي الماضي القريب اعتبرت الزراعة نبض الحياة في عمَّان، وأما الآن تحولت إلى التجارة كالتالي: "عمَّان غير ياخوي، مابيها مستقبل للزراعة ... هاي بلد بدها تغيير بيوت ودكاكين، مش شايف؟ كتارين شو يساووا إدارات ومكاتب ومدارس، وبكره دور حجر وخلافة، ما بظل مطرح للمزارع، إنت بتوكل منها، وبخسروها أولادك"(٥).

---

(١) سميحة خريس : شجرة الفهود ... تقاسيم العشق، ص ٢٣٦.
(٢) سميحة خريس : دفاتر الطوفان، ص ٥١.
(٣) المصدر السابق، ص ٢٤٩.
(٤) المصدر نفسه، ص ٤٨.
(٥) المصدر نفسه، ص ١٢٦.

وعند الانتقال لرواية "الشهبندر" نلاحظ أن أحداث الرواية تسير في المدينة – عمّان–، فالسيل والزراعة كانت برأي الشهبندر سندي عمّان لتكون، فأصبحت التجارة سندها لكي تنهض، حيث ازدهرت بكثير مقارنة بالماضي فكانت عمّان بلدة حتى تطورت فيما بعد مع التقدم الحضاري.

ويضيف هاشم غرايبة إلى ذلك حديث الدومري عندما يسير في شوارع المدينة عمّان كالتالي: "*أطوف شوارع عمّان وتلالها ليلاً متفقداً الإنارة والقائمين عليها ... لهذا العام، بدأت تنتشر ماتورات الكهرباء في عمّان ودوري بدأ يتضاءل ... أنا الدومري كاتم أسرار المدينة، وخبير ليلها لست بصاصاً، ولكن مهنتي سلمتني مفاتيح الأسرار*"(١) فنلاحظ أن دخول الكهرباء غيرت حياة المدينة وانتقلت من حالةٍ إلى حالة أخرى أفضل.

ويضيف الراوي في موطن آخر جماليات مدينة عمّان كالتالي:"*أدقق النظر فأرى الناس كأنما هم في حفلةٍ تنكرية: سافرات/ ومحجبات، عباءات منوّعة، وبدلات عصرية... أزياء البشر من كل الملل ممثلة في عمّان... ما أجمل عمّان!... كأنما الناس في عرس دائم! ضجيج وصخب، أزياء الشرق وأزياء الغرب تختلط، طرابيش وشماغات، قلبق شركسي، وفصلية عراقية، عمامة عربية، وبرنيطة غربية، عباءات ودوامر، وبدلات داكنة بصداري زاهية...*" (٢).

هكذا هي مدينة عمّان بما فيها من أجناس مختلفة، وأسواق ضخمة لا تحصى، فجاءت الروائية واصفة هذه المدينة بكل الصفات الجميلة التي تليق بمدينة عمّان.

الحـــــي:

الحي من أكثر أسماء الأمكنة العربية التي تشير إلى معنى الحياة وحركتها الدائمة، إلى درجة أن الحي اسم يشترك فيه المكان والإنسان والمطلق في مفرده، ويشترك فيه الإنسان والمكان في مفرده وجمعه معاً(٣).

---

(١) هاشم غرايبة، الشهبندر، ص ٥٦-٥٧.

(٢) المصدر السابق، ص ١٦١.

(٣) شاكر النابلسي : جماليات المكان في الرواية العربية، ص ٥١.

فالحي هو النواة الأولى للقرية والبلدة والمدينة، ويعتبر من أماكن الطفولة الأولى، مثله مثل رحم الأم، و البيت الأول. ومثل هذه الأمكنة تتسم بالدفء والحنان والسلام والمحبة، ومن هنا تبقى عالقة في الذاكرة، أطول مدة ممكنة لأنها هي البدء، وهي أصول الأمكنة الأخرى(1).

ففي رواية "أبناء القلعة" نرى الراوي ينطلق منذ البداية من الحي، فيذكر حي القلعة، هذا الحي الذي يجمع السكان والذي يمثل لهم الاستقرار والهدوء والسكينة، وذلك يتمثل في الرواية على النحو التالي: "فخري وحده في المنزل لا يزعجه نقر المطر، ولا يقلقه عويل الريح، ولا صوت المياه الجارفة في السيل القريب..." (2).

أيضاً ما جاء كالتالي: "سيسأل كل أهالي الحي، إلا أبا عبده، وكان الجيران يجيبون فخري بذهول ودهشة وقد تشربت ملابسه المياه حتى صارت تقطر منها..." (3).

ويمثل الراوي في روايته حب أهل الحي للمكان، وترابطهم القوي هذا الحي: "حرّان يحب أهل الحي مهما قال عنه أبناء الحي ... فهو ينتمي للحي"(4).

لهذا فالحي يمثل النواة الأولى للقرية، فسكان الحي يتحدون على قول واحد وقوة واحدة في حماية الحي من كل غريب يدخل بينهم وذلك كالتالي : "أبناء الحي كانوا يخافونه، والطلبة في المدرسة يتجنبون العراك معه، .... وهو بعد موت أبيه لم يعد يخاف أحداً .... وأشبع ضرباً كل من تصدى له، وتزعم من غير مبايعة فتية الحي، فأصبحت القلعة حصينة به، يدفع عنها كل متسكع، أو غريب يهوى المشاجرات. إذ سرعان ما يتنادى الفتية فيها بينهم وينادون فخري ليأتي إليهم، فتنشب المعركة، ويهرب المتسكعون إلى حاراتهم والغرباء إلى أحيائهم، و تبقى القلعة تحت سيطرة أبنائها..." (5).

---

(1) شاكر النابلسي : جماليات المكان في الرواية العربية، ص ٥١-٥٢.
(2) زياد قاسم : أبناء القلعة، ص ٦.
(3) المصدر السابق، ص ٦.
(4) المصدر نفسه، ص ١٠٩.
(5) المصدر نفسه، ص ١٥.

فكل غريب يدخل الحي يبقى مراقباً، من أهل الحي إلى أن يكشف عن هويته وذلك جاء كالتالي في أول أيام العيد، "ربما ظنه أهالي الحي عابر سبيل، فلم ينتبه أحد إليه وهو يتفقد شوارع الحي. ربما لأن بهجة العيد وصراخ الصبية، وانتباه الجميع للبيع أو الشراء قد ساعد في ظهور محارب كالجني، واقفاً أسفل الدرج الطويل، قريباً من مقهى حمران وكراج عواد النمر، اكسب. اكسب. اكسب"[1].

أيضاً ما جاء كالتالي: "في المساء لم يبق أحد من صبية الحي أو رجاله إلا وشاهد محارباً. لم يبق أحد في ذلك المكان إلا وتقدم نحوه وراقب اللعبة..." [2].

أما في رواية مؤنس الرزاز "جمعة القفاري"، يذكر الراوي أحد أحياء عمَّان وهو حي نزال، عندما تحرك سيارة الأجرة نحو دار القران وذلك كالتالي: "السلام عليكم.... حي نزال...دار القرآن من فضلك"[3].

فالبطل جمعة هو محرك الأحداث في الرواية، على الرغم من أنه لا يعترف بوجوده في الحياة وكأنه نكرة.

أما روايته الأخرى "الشظايا والفسيفساء"، لم يأت فيها ذكر لأحد أحياء المدينة.

أما في رواية "الشهبندر" لم يأت ذكر لأحد الأحياء إلا "حي المعانية" في مدينة عمَّان وذلك كما جاء كالتالي: "وصار لي بيت في حي المعانية في المحطة (يطقوني) من قوة الحديد..." [4].

وفي رواية "دفاتر الطوفان"، جاءت الروائية بذكر الحي في نهاية الرواية، فتحدثت عمن سكنوا كل حي من أحياء عمَّان، وذلك كالتالي كما جاء في الرواية: "في البدء قسمت المدينة سكانها تبعاً لأصولهم، فهناك حي المهاجرين للشركس، وحي الطفايله للريفيين الذين جاءوا من الجنوب، وهناك حي المصاروة، وآخر السلطية للبخارية،

---

(١) زياد قاسم : أبناء القلعة، ص ١٦٤.

(٢) المصدر السابق، ص ١٦٥.

(٣) مؤنس الرزاز : جمعة القفاري، ص ١٦٨.

(٤) هاشم غرايبة، الشهبندر، ص ١٨١.

ولليمنية، والمغاربة، والمعانية، ولكن مصالح العباد، وحركة السوق تخلط الفلاح بالحضري، وشقران الروس بسمران البدو..." (١).

ب- الأمكنة المغلقة:

البيت:

فالبيت، والمبيت، والمبات في اللغة معناه واحد، وهو المكان الذي يقيم فيه المرء في الليل، وإن لم ينم فيه، ولهذا دلالته في التفريق بين الدار والبيت، فالدار هي مكان للإقامة والنوم والاجتماع والسمر --بينما ألبيت هو للإقامة ليلاً فقط، أي أنه لا يتسع في الأصل إلا لهذا الغرض. ومن هنا كان أصغر حجماً من الدار، وأقل مقداراً من الناحية المعمارية والاجتماعية، ومع تطور الحياة العربية، أصبح يطلق على البيت شقة، و لم يعد هناك فرق بين البيت والشقة إلا من حيث الموقع. فإن كان البيت بعدد معين من الحجرات واقعاً في عمرة سمي شقة. وإن كان واقعاً فبأرض وحدة وبنفس عدد الحجرات سمي بيتاً أو "فيلا"(٢).

ففي رواية "مخلفات الزوابع الأخيرة"، يقوم الراوي بإبراز معالم البيت، وذلك على النحو التالي: "وظهرت معالم جديدة في الأزقة، وفرن البيوت، كأدراج الحديد اللولبية الصاعدة التي تصل بين الطابقين أو أكثر، والتي استخدمها الناس للتغلب على مشكلة ضيق المساحات، وظهرت أيضاً الشبابيك الواسعة المختلفة عن النوافذ الصغيرة في الطوابق السفلية، كما ظهرت (الكينارات) وهي الخطوط اللونية الملتفة بشكل عرضي حول البيوت لتجميل مظهرها الخارجي، والأهم من هذا أن الشرفات الضيقة المعلقة المحمية بالأفاريز الحديدية ظهرت إلى الوجود، وصار الناس يتمشون ويسهرون ويرقبون المارة وهم مستندين بأذرعهم إلى حواجز وأفاريز الحديد..." (٣).

---

(١) سميحة خريس: دفاتر الطوفان، ص ٢٥٦.

(٢) شاكر النابلسي: جماليات المكان في الرواية العربية، ص ١٤٢-١٤٣.

(٣) ناجي جمال: مخلفات الزوابع الأخيرة، ص ١١٠.

ونرى جمال ناجي أعطى لوناً محدداً لبيوت الغجر وقام بتقسيمها حسب بنائها وشكلها الخارجي، وذلك على النحو التالي "إن السكان الذين تربط بينهم أواصر القربى، والذين تتلاصق بيوتهم في الغالب، لجأوا إلى تلوين بيوتهم بلون واحد، وإعطائها أشكالاً خارجية متقاربة"(١).

وعند الانتقال إلى رواية "أبناء القلعة"، نلاحظ اهتمام زياد قاسم في بعض الأحيان بالمكان، حيث يقوم بتفصيله، وذكر الشكل، والموقع الخارجي بالنسبة للبيت وذلك كالتالي: "يقع المنزل على الشارع الذي يصل الشارع السفلي المسمى شارع الشابسوغ بالشارع العلوي المحيط بالقلعة، وهو مؤلف من ثلاث طبقات واسعة بيت من الحجر والاسمنت..... الطابق الأرضي يتكون من تسوية واسعة، احتشد فيها أثاث قديم، ومعدات بناء خشبية ومعدنية اعتراها القدم والصدأ، وأدوات حرب قديمة، وكل ما لم يستطع شمس الدين التخلي عنه أو استخدامه فكانت عبارة عن مستودع مظلم تسكنه في أمن تام، العناكب والزواحف والديدان، لا يفتح عليها الباب إلا نادراً ولفترات قصيرة، الطابق الأول من المبنى مؤلف من شقتين، الأولى مؤجرة إلى عائلة أبي وداد الذي يعمل في الصحافة، والثانية مؤجرة إلى عائلة الأستاذ منصور، الطابق الثاني الذي تسكنه عائلة شمس الدين، تشغل مساحته شقة واسعة مؤلفة من صالتين وأربع غرف للنوم، يتم الوصول إليهما عن طريق درج خلفي، في أعلاه مصطبة مطلة على البستان"(٢).

أيضاً ما جاء في وصف البيت كالتالي: "كان السكون عميقاً في منزل فوزية بكل طوابقه.... صعدت فوزية الدرج ببطء، تاركة أم برجس وحدها في منزلها، كانت فوزية تريد بعض العزلة.... وصلت فوزية إلى الصالة وهناك لاحظت باب غرفة أبيها قد ترك مفتوحاً، وهو الذي لا يفتح إلا نادراً، تقدمت خطوات وقالت بصوتٍ خفيض، فارس...

(١) ناجي جمال : مخلفات الزوابع الأخيرة، ص ١١٠.

(٢) زياد قاسم : أبناء القلعة، ص ١٤.

فارس.... كان الصمت مطبقاً، والظلام عميقاً، وأصوات الطلقات تمزق السكون، وتثير الرعب والخوف. تقدمت إلى الغرفة، فكانت معتمة مثل القبر، ساكنة مثله...."(١).

فالراوي هنا يشبه صمت البيت وسكونه بالمقبرة، وماثله في هذا الوصف الروائي مؤنس الرزاز، في روايته "جمعة القفاري" وذلك كالتالي : "بيتنا كان صامتاً صمت القبور، أمي أضربت عن الكلام منذ مقتل والدي لأسباب سياسية وهو بعيد عن السياسة وقريب من مبنى رئاسة الوزراء، وعائشة تثرثر في المدرسة، وحيث تعود إلى البيت يكون كلامها قد نفد!" (٢).

وفي روايته "الشظايا والفسيفساء"، جاء ذكر البيت كالتالي : "عندما ينعزل عبد الكريم في بيته الذي استأجره، استأجر بيتاً قديماً، لا هاتف فيه ولا جرس باب في الليل يضطجع على أريكة ويتفرج على التلفزيون.... ثم يخرج إلى الحديقة الصغيرة فيسقي نباتاتها ويرس أرضها.... ويعود إلى الصالة الصغيرة.... في المساء كان يخرج من حجرة، فيعرج على صديق أبيه الشيخ المقعد..." (٣).

أما في رواية "دفاتر الطوفان"، لسميحة خريس فنراها تذكر ما حل بالبيوت عندما هبت الرياح كالتالي: "خلخلت الريح أسقف بيوت الطين المبنية، عند سفح جبل القلعة، أما الأسقف الخشبية المشدودة بالحبال المتينة والمليسة بالطين والشيد معاً، فقد صمدت إلا من ولف طفيف هنا وهناك.... وصمدت بيوت الباطون و الحديد المسلح في جبل عمّان الجديد وجبل اللويبدة، وقد التمعت حجارتها البيضاء المكحلة بالأسمنت تحت ضرباتي فكأنما ينبعث الضوء من الحجارة المغسولة..." (٤).

أما روايتها "شجرة الفهود...تقاسيم العشق" فجاء ذكر البيت، مفصلاً بتقاسيم حجره كالتالي في مدينة عمّان: "بيتنا إرثنا الجيد، كان صغيراً، ثلاث حجرات ومطبخ وحمام

---

(١) زياد قاسم : أبناء القلعة، ص ١٠٥.
(٢) مؤنس الرزاز : جمعة القفاري، ص ١٩١.
(٣) مؤنس الرزاز : الأعمال الكاملة، ص ٥٥٢.
(٤) سميحة خريس : دفاتر الطوفان، ص ٢٧٦.

أفرنجي، ميزة نحسد عليها في الحديقة مساحة مبلطة تسميها أمي البرندة، وتحشر فيها نبات السجادة والمكحلة والريحان ورجل الفيل..." (1).

فجاء حب هذا البيت تدريجياً عند الاعتياد عليه، وألفه كل شيء فيه كالتالي: "أحببت هذا البيت بالتدريج..." (2).

أما هاشم غرايبة في روايته "الشهبندر"، فنراه يذكر بيتاً قديماً وذلك حتى يحيي فينا أصالة الماضي وقيمته كالتالي: "من البيت المبني بالطين والحجر المشذّب المأخوذ من حجارة الآثار، واللائذ بحمى قلعة قديمة مهدّمة الأسوار ... خرج نحال ضئيل الجسم، كثّ اللحية، غائر العينين..." (3).

السوق:

عادةً يمثل السوق مكان اكتظاظ الناس إما لشراء الملابس، أو الإكسسوارات، أو الأطعمة بكافة أنواعها، فمثلت هذه الأسواق رقيّ المدينة، فهي تعتبر من الأحياء المكانية التي تعكس تطور البلد ورقيها، ففيها يجتمع البشر على اختلاف فئاتهم ومستوياتهم، إضافة إلى أنها تساعد في تجميع الأفكار كي تكون مصدراً لبث الوعي عند الشعوب في بعض الأحيان.

ففي رواية جمال ناجي "مخلفات الزوابع الأخيرة"، يذكر السوق باسم نوفوتيه، قام نزار زوج هادية بافتتاحه في الوادي كالتالي: "ما رأيك في أن نفتح محلاً للنوفوتيه؟ ثم أردفت 'لا توجد محلات نوفوتيه في الوادي' في الوادي ثلاثة محلات لبيع الملابس يا هادية.(4).

أيضاً ذكر السوق كالتالي في الوادي وذلك بعد الافتتاح: "عند التقاطع تتلملم محلات بيع الأدوات والأواني المعدنية والبلاستيكية، ومحلات النوفوتيه، والأقمشة والخردوات

---

(1) سميحة خريس : دفاتر الطوفان، ص ٩٢.

(2) المصدر السابق، ص ٩١.

(3) هاشم غرايبة : الشهبندر، ص ٢٦١.

(4) جمال ناجي : مخلفات الزوابع الأخيرة، ص ١١٥.

والأثاث والدكاكين، وتعلو نداءات باعة الخضار ذوي الذقون الشوكية، وباعة اللحوم والأسماك المجمدة والدجاج الأبيض في الأقفاص الخشبية، وتلملم النسوة بسلالهن البلاستيكية حول عربات الباعة وبسطاتهم...." (١)، هكذا هي حياة السوق في الوادي.

أما رواية "أبناء القلعة"، جاء ذكر السوق فيها عند ظهور المنافسة بين الأطـراف وذلك كالتالي: "أبو عبده قرر أن يغزو السوق قبل أن يغزوا أحد غيره، تنبه إلى ذلك عندما أخذ بعض طلبة المدارس يشترون فطائر القشطة والجبنة صباحاً وهم في طريقهم إلى مدارسهم..." (٢).

أما رواية "جمعة القفاري"، يذكر فيها تجول جمعة في سوق صاغة الذهب "الشارع مزدحم بالناس، مقفر من الهواء، وركض الشارع من تحتي..... واجهات المحال تركض، وملامح عابرة تومض ثم تختفي..." (٣).

ثم يذكر لنا الراوي في موطنٍ آخر، أن "بائع الخضرة" يلازمه اكتئاب كما هـو حال جمعة القفاري كالتالي:" كنت مثل بائع خضرة في سوق الخضار: عندي اكتئاب وإدمان وأرق ونقص مروع في القدرة على التأقلم والتكيف وصعوبة في إنتاج الأصدقاء"(٤).

أما الروائية سميحة خريس نراها تهتم بذكر الأسواق لأنها اعتمدت على التجـارة المزدهرة في عمّان وذلك في روايتها "دفاتر الطوفان" وذلك كالتـالي: "أسواق المدينة عامرة بكل ما لذ وطاب، يحبون السكاكر واللحوم، ويقبلون بلهفة على كل سلعة جديدة، ولكنهم يعتزون بمنتجات أيديهم وصنع نسائهم مما يسمونه حواضر البيت أو التموين .... ويرحبون بالأسواق الجديدة، عندما قام سوق البخارية في صحن الجامع الحسيني تلهّوا بالبيع و الشراء عن الصلاة والدعاء..." (٥).

---

(١) جمال ناجي : مخلفات الزوابع الأخيرة، ص ١٦٨.

(٢) زياد قاسم : أبناء القلعة، ص ٣٠٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٢٦.

(٤) مؤنس الرزاز : جمعة القفاري، ص ٢٣.

(٥) سميحة خريس : دفاتر الطوفان، ص ٢٤٧.

فأسواق عمّان في الماضي القريب كانت بضائعها رخيصة ولكن فيما بعد ارتفعت الأسعار بشكل كبير، إلى درجة عجز فيها المواطن عن شراء أهم الأشياء الأساسية، وشمل هذا الارتفاع كلاً من الخضراوات والفواكه والملابس، بينما في الماضي كان كل شيء رخيصاً وذلك جاء في الرواية كالتالي: "لله درُّ عمّان ما ألين العيش فيها وأرخص التكاليف، يبيعون عشرين كيلو من دبس العنب أو البلح بدينار، ورطل السكر الأبيض الفرط، أو المكعبات بأربعة قروش، وخمس بيضات بقرش..."[1].

وفي رواية " الشهبندر" يصف لنا الراوي اكتظاظ السوق بالناس وذلك كالتالي:- " يسمونه درب النملة لازدحامه بالخلق، اسمه الرسمي شارع طلال.... هنا تصب الكثير من الأسواق الفرعية فيض زبائنها، مثل سوق السكر خلف الجامع الكبير، وسوق البخارية أمام الجامع ، وسوق الشوام، وسوق الحدادة..."[2].

المقهى:

مكان يعتبر علامة من علامات الانفتاح الاجتماعي والثقافي، فنلاحظ أن المقاهي انتشرت في أماكن مختلفة في العالم العربي، وكانت مجتمعات هذه المقاهي منفتحة انفتاحاً اجتماعياً وثقافياً وفنياً ملحوظاً، فيما لو علمنا أن بعض المقاهي كانت تقوم مقام النادي الأدبي، كما كانت تقوم مقام المسرح، فتميزت هذه المقاهي بحرية التعبير، فنرى أن جيرار ليمير قال : "إن مقاهي الشرق مراكز، حرية التعبير فيها هي القاعدة"[3].

فنرى جمال ناجي جعل من المقهى متنفساً للشبان على حد قوله في الرواية كالتالي: "في مقهى أبو بركة وجد شبان الوادي ورجاله متنفساً لهم، ومكاناً يقضون فيه الساعات المملة التي غالباً ما تؤدي إلى ضيق أمهاتهم ونسائهم بهم، لذا أخذوا يترددون على تلك المقاهي بعد عودتهم من أعمالهم..."[4].

---

(١) سميحة خريس : دفاتر الطوفان، ص ٢٤٩.

(٢) هاشم غرايبة : الشهبندر، ص ١٢٥.

(٣) شاكر النابلسي : جماليات المكان في الرواية العربية، ص ١٩٥.

(٤) جمال ناجي : مخلفات الزوابع الأخيرة، ص ٦٢.

أما زياد قاسم فقد وافقه في حديثه عن المقاهي باعتبارها متنفساً للزبائن ولقضاء أوقات الفراغ كالتالي: "في هذا المكان لا يتعب الزبائن في البحث عن حران، ولا يتعب هو في الوصول إليهم، وتقضي أخبارهم، أهالي الحي اعتادوا رؤية حران جالساً على الرصيف صيفاً، وقرب الباب من الداخل شتاءاً، إنه جزء من محتويات المقهى التي لا تتجدد ولا تتغير.... في المقهى تحول لعب الورق مع الأيام من تسلية بسيطة يدفع المغلوب فيها ثمن القهوة والشاي، إلى رهان أكبر يدفع الخاسر فيه ثمن الكنافة أو الغذاء أو العشاء..." (١).

أما عند مؤنس الرزاز في روايته (جمعة القفاري) جاء بذكر المقاهي في بعض أحاديثه من أجل اللقاء وذلك كالتالي: "حددت موعد اللقاء وزمانه (أحد مقاهي الشميساني) فوافقت"(٢).

أما في رواية "الشظايا والفسيفساء"، نلاحظ أن الراوي يذكر المقاهي مرةً واحدة بشكل مختصر، بأنها لم تعرف إلا عبد الكريم من كثرة جلوسه فيها وذلك كالتالي: "المقاهي لفظت عبد الكريم، الشوارع نبذته، رواد فندق الكناري ارتحلوا.... فاستغاث بالحزب..." (٣).

أما في رواية "دفاتر الطوفان"، لسميحة خريس، نلاحظ أن أغلب الأحاديث تدور في المقاهي كالتالي: تدور الأحاديث في المقاهي والبيوت والمدارس عن التغيير الجديد.(٤).

أيضاً ما جاءت به كالتالي في قضاء أوقات الفراغ والتسلية: "كذلك كان حال المقاهي، ولعمري وكأن أهل عمّان مغرمون باللقاء في تلك المقاهي الملاهي، يلعبون الشطرنج والطاولة والمنقلة والشدة، ويشربون الشاي والقهوة والميرمية والبابونج، ويتداولون الحديث حول ما يجري في البلاد..." (٥).

---

(١) زياد قاسم : أبناء القلعة، ص ٦٩.

(٢) مؤنس الرزاز : جمعة القفاري، ص ٢٦.

(٣) مؤنس الرزاز : الأعمال الكاملة، ص ٦٢٧.

(٤) سميحة خريس : دفاتر الطوفان، ص ٢٢٠.

(٥) المصدر السابق، ص ٢٢٠.

أما في رواية "الشهبندر"، يأتي ذكر المقهى معبراً عن تاريخ مضى، فهو يمثل التاريخ لمدينة عمّان و ذلك كالتالي: " أنا مقهى حمدان.... شاهد تاريخ الأمة... مثلما الباشا شيخ الأردنيين أينما اجتمعوا أنا ملتقى الوطنيين والقوميين مهما إختلفوا... هنا عقدوا مؤتمرهم الأول!" (١).

الحمـــــــام:

المعروف عن هذا المكان أنه وجد من أجل الاستجمام، ولكن في هذه الروايات جاء ذكر الحمام في بعضها من أجل التعمق في التفكير أو لتذكر شيءٍ ما، فجاء ذكر الحمام عند جمال ناجي مرتبطاً بالسرحان والتذكر، كما يلي: "ذهب منعش إلى الحمام، جلس على السيفون وأخذ يحلق في الجدران وفجأة تذكر سند الملكية، وتذكر حمران وتذكر كازوز فروت آب، فهب واقفاً وخرج مهرولاً إلى غرفة نجاح"(٢).

أما ما جاء ذكره في رواية "جمعة القفاري"، فقد ذكر الحمام ليدل على الاستجمام وذلك كما جاء كالتالي:"ثم قامت إلى الحمام واغتسلت، مع أنها لم تشغل التدفئة. فخمنت أنها استحمت بمياه باردة، وأولت هذه الظاهرة بأنها ترغب في إخماد رغبتها الملتهبة بالمياه الباردة..." (٣).

أما رواية "الشظايا والفسيفساء"، جاء ذكر الحمام ليدل على نفس شيء من أجل الاستجمام، وإخماد النيران الملتهبة في رأس عبد الكريم كالتالي: "ماء الحمام بارد، لم استخدم الصابون ولا الشامبو، بلا رغوة دخلت في ملابسي مبتلاً..." (٤).

أما في رواية "دفاتر الطوفان"، لسميحة خريس نجدها تذكر "حمام النصر" المشهور في مدينة عمّان، فسمّي بهذا الاسم أسوةً بالحمامات التركية التي عرفها القوم في بلاد الشام وذلك كما جاء كالتالي: "في حمام عمّان الوحيد وفي حجرة تحت سطع البناء تسخن

---

(١) هاشم غرايبة : الشهبندر، ص ٩٣.

(٢) زياد قاسم : أبناء القلعة، ص ٢٤٨.

(٣) مؤنس الرزاز : جمعة القفاري، ص ١٤٣.

(٤) مؤنس الرزاز : الأعمال الكاملة، ص ٦٠٦ .

المراجل الكبيرة المملوءة ماءً على الفحم حتى الغليان، وترتاد النساء الحمام عصراً، أما الرجال فموعدهم صباحاً، يستحمون ويغنون العتاب والجينا ويتبادلون أسرار المدينة"(1).

وتذكر سميحة في روايتها الأخرى "شجرة الفهود تقاسيم العشق"، الحمام عندما تقوم فريدة بتجهيز الحمام لتحمم غزالة التي كبرت، فأصبح جسمها ضعيفاً حيث لم تعد تقوى على تنظيف نفسها وذلك كالتالي:- " تسعد لأنني أقترح عليها حماماً دافئاً وتحضر راتيه كرسياً بلاستيكياً نضعه في أرض الحمام وتتعرى غزاله دون حرج وتجلس على الكرسي، أعبئ طاسة الماء وأدلقها على جسدها، اسفنجة ناعمة لا تعجبها ورغوة كثيرة تظل تطالب بزيارتها، أمد جسدها المتداعي فتعترض؟"(2).

القبر:

يأتي ذكر القبر في الأحاديث لكي نؤمن بأن الموت حق، وأن الدنيا فانية، فجاء ذكره في هذه الروايات الأردنية حتى يزرع في قلوب الناس الرهبة والخوف، ولكي يؤمنوا بأنّ الله ﷻ هو خالق العباد، ففي رواية "مخلفات الزوابع الأخيرة"، جاء ذكر القبر عند حنين سبلو إلى زوجته بهاج التي ماتت، فيقوم بتشييد بناء حول قبرها، فهذا القبر أصبح بالنسبة له مركز شؤم، حتى أنه قام بزرع عدة أشجار مثمرة حول قبرها فلا يقربها أي أحد ظناً أن لعنة الموت ستحل عمّن يقترب منها، كما جاء كالتالي: "لقد قام ببناء أربعة جدران حجرية ببوابة حديدية حول قبر بهاج، وزرع ثلاثاً من أشجار الكرمة التي كبرت بسرعة، فأورقت ظلالها فوق ذلك الجدث، وأثمرت دون أن يجرؤ أي من صبية الوادي، أو فتيته على قطف عنقود واحد من تلك الأشجار! ذلك أن الجذور ممتدة في الأرض، والأرض قبر، والثمار مستمدة من رفات بهاج الميتة!..." (3).

---

(1) سمحية خريس : دفاتر الطوفان، ص ١٨٤.

(2) سمحية خريس : شجرة الفهود تقاسيم العشق، ص ٢٣٥.

(3) جمال ناجي : مخلفات الزوابع الأخيرة، ص ٥٧.

أما رواية "أبناء القلعة"، ورد ذكر القبر فيها عند وفاة فوزية، فوزية هـي رمـز للمرأة العربية التي سلبت حقوقها، فشبهت بشجرة السنديان الثابتة في جبل القلعـة إلى أن جاء صاروخ مدمر فدمرها، أما ما ورد في ذكر القبر كان كالتالي : "في دقائق قليلة انهال الردم فوق البلاطات، إرتفع التراب عن الأرض في تسنيمة محدودبة، ثم وضعت طوبة من الجهة التي نام فيها الرأس، وفارس يراقب ما يجري بلا وعي... لماذا خطر بباله وهم يمدون تسنيمة القبر بأن فوزية حبلى...؟"، أيضاً مـا جـاء كالتـالي : "وصل إلى بوابة المقبرة... توقـف التفـت إلى الخلـف... لم يتبين قـبر فوزيـة.... استدار وأطال التحديق، الأضرحة الحجرية متشابهة، القبور قديمها وجديدها متشابهة، صمت موحش وسكون..." (١).

وفي رواية "شجرة الفهود تقاسيم العشق" نلاحظ أنه ورد ذكر المقبرة عندما أراد ماجد زيارة القبور في إربد، لزيارة أقربائه الذين توفوا، فتذهب فريدة معـه في هـذه الزيارة وذلك كالتالي: "هزني الشوق .... إما أنني مجنونة أو مجنونة.... الرجل حزين وأنا أفرح لفكرة زيارة المقبرة!!" (٢).

---

(١) زياد قاسم : أبناء القلعة، ص ٣٩٣-٣٩٤.

(٢) سميحة خريس : شجرة الفهود تقاسيم العشق، ص ٢١٩.

الفصل الثاني

عمَّان في الرواية الأردنية

١-عمَّان ذات البعد الواحد / التشكيل الروائي لعمَّان في الرواية الأردنية المبكرة:

في البداية نجد أن تسميات مدينة عمَّان تعددت منذ القدم، حيث أطلق اسم ربة عمون على عمَّان ، والربة تعني (دار الملك) أو (العاصمة)، وأخذ هذا الاسم من اسم الشعب الذي سكنها وهم العمونيون، بينما أسماها اليونان والرومان فيلادلفيا، نسبة للقائد بطليموس فيلادلفيوس[1].

كما جاء مصطلح عمَّان مرادفاً لمصطلح البلقاء في بعض المؤلفات؛ فجاء في معجم البلدان "البلقاء كورة من أعمال دمشق، بين الشام ووادي القرى قصبتها عمَّان، وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة، وبجود حنطتها يضرب المثل"، وأشار المقدسي إلى ذلك بقوله : "عمَّان على سيف البادية، ذات قرى ومزارع ورستاقا البلقاء". وهي معدن الحبوب والأنعام، بها عدة أنهار وأرحية يديرها الماء. ولها جامع ظريف في طرف السوق مفسفس الصحن شبه مكة"[2].

وعلى الرغم من التسميات العديدة لمدينة عمَّان، إلا أنَّ أقواها من نسب عمَّان إلى ربة عمون، أي أن عمَّان جاء تحريفاً من اسمها القديم ربة عمون.

كما سميت عمَّان في العصر الحديث بتسميات عدة منها، مدينة المياه، ومدينة البيادر[3].

وللحديث عن أهمية عمَّان من حيث موقعها، نجد أنها تميزت بموقعها من ناحية إستراتيجية، فكانت سبباً لقيام حضارات متعددة على أرضها؛ فهي تقوم على حافة البادية الأردنية في منطقة انتقالية ربطت بين إقليم الصحراء، وإقليم البحر المتوسط، كما مثّل موقع عمَّان جزءاً من هضبة شرقي الأردن التي تراوح ارتفاعها بين (٧٤٥-١٠٠٠م)، فوق مستوى سطح البحر، وتوسط المدينة نهر صغير (سيل عمَّان) كان

(١) حنان ملكاوي : مدينة عمَّان (١٩٢١-١٩٤٧) دراسة تاريخية، دار الكندي، إربد، ٢٠٠٢، ص ١٩.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٠.
(٣) المرجع نفسه، ص ٢١.

يسقي سكانها، بالإضافة إلى الزراعة التي كانت قائمة حوله، فكانت مياه السيل تنبع من سفوح التلال المحيطة بالوادي، والذي يعرف باسم (وادي عبدون)، وهو المكان الذي يعرف الآن باسم رأس العين[1].

ومن المعروف أن الشراكسة هم أول من استقر واستوطن في مدينة عمّان كمجتمع منظّم في نهاية القرن التاسع عشر، ولم تكن هذه المدينة قبل هذا التاريخ سوى خرائب ووديان.

ولم يبق الشراكسة العنصر الوحيد من السكان في مدينة عمّان، بل تبعتهم عناصر أخرى، وذلك حين بدأت هجرة بعض العائلات العربية من المناطق المحيطة بعمّان وخاصة من مدينة السلط ثم العائلات القادمة من فلسطين وسوريا، ولما كان الشراكسة قد اتخذوا من ضفتي سيل عمّان، بالإضافة لحي الشابسوغ وحي المهاجرين فيما بعد أماكن لسكناهم، فقد كان على العائلات العربية الوافدة أن تزاحمهم في هذه الأحياء المحاذية للماء والسوق التجاري ثم لتنتشر في أماكن أخرى وهي السفوح، وهكذا كان[2].

يروي الشيخ *أحمد العمايرة**، أن عائلته قدمت من مدينة السلط عام ١٨٩٠م، حيث سكنت في المنطقة المجاورة لبناية أمانة العاصمة حالياً، وذلك بأن استأجروا منزلاً يملكه أحد الشراكسة، ويضيف العمايرة أنّ عائلة البلبيسي وهي مصرية الأصل جاءت إلى عمّان عن طريق فلسطين، وسكنت إلى جوارهم فيما بعد كما أن عائلات القيسية، والكساونة، والبوريني، والعورتاني من فلسطين أيضاً، كانوا يسكنون جبل القلعة، فكانت هجرة هؤلاء جميعاً إلى مدينة عمّان بسبب البحث عن مصادر للرزق عن طريق التجارة والزراعة، فمدينة عمّان أصبحت مركزاً تجارياً حيوياً بسبب التجمع

---

(١) حنان ملكاوي : مدينة عمّان (١٩٢١-١٩٤٧) دراسة تاريخية، ص٢٣.

(٢) عبدالله رشيد : ملامح الحياة العشبية في مدينة عمّان (١٨٧٨-١٩٤٨)، منشورات أمانة عمّان، ط١، ١٩٨٣، ص ٥٦.

* من مواليد السلط عام ١٨٧٠، وكان يعمل تاجراً للأدوات المنزلية في شارع الهاشمي.

السكاني، لذا كانت الفرصة مناسبة لأن يقوم الوافدون العرب بفتح بعض الحوانيت التجارية من جهة والعمل مع أصحاب الأراضي الزراعية، (وهم الشراكسة كإجراء ومشاركين) من جهة أخرى.

وأكد ذلك ما قاله الشيخ المرحوم عبدالرحمن سرور فالح* كالتالي :أن عائلته قدمت إلى المدينة حوالي عام ١٩٠٥م، وسكنت في الوادي الذي سمي باسمهم (وادي سرور)، كما ذكر بعض العائلات التي سكنت فيما بعد في هذا الحي وهم : عائلة سرور، والعيشات، وشاهين، والطهراوي، والعايدي، وأبو حصرة، وهؤلاء جاءوا من بلدة سحاب من ضواحي عمّان، أما عائلات أبو حمور، وطافش، والجزازين، وأبو طالب، وأبو كير، وتادرس، فمن مدينة السلط، وأما عائلات العورتاني والطوباسي، والطنبور، والقيسي، والوزني، والجالودي، وأبو محيسن، والساحوري، وأبو رشدي فمن فلسطين، إلا أن عائلات العورتاني، وأبو محيسن، والقيسي، كانوا يسكنون خارج عمّان من قبل، فعائلة محمد الرشيد العورتاني كانوا يسكنون قرية اليادودة، وعائلة أبو محيسن في الطفيلة. وكذلك عائلة الترك، والنظيف، والمصري. أما العائلات السورية (الشوام)، فقد كان هناك سببان رئيسيان في هجرتهم إلى المدينة، السبب الأول كان البحث عن مصادر الرزق متمثلاً ذلك بالتجارة. والسبب الثاني قيام الثورة السورية التي سببت هروب الثوار إلى الأردن، حيث وجدوا فيه موقعاً ملائماً للانطلاق نحو الهدف المتمثل بمقارعة المستعمر الفرنسي، ثم استقرارهم نهائياً في المدينة واحترافهم مهنة التجارة[1].

---

* من عائلة الجزازي من مواليد السلط عام ١٨٨٠، كان يعمل تاجراً للخردوات ثم الألبان، توفي عام ١٩٧٥.

(١) المرجع السابق، ص ٥٧.

لهذا كان المجتمع الأردني قبيل تأسيس الإمارة مجتمعاً زراعياً أقرب إلى البداوة تمثلت مثله وقيمه من الحياة القبلية، التي كانت سائدة في هذه المنطقة، كما كانت الثروة الحيوانية أهم ما يملك سكان البلاد.

فكانت عمّان مع بداية تأسيس الإمارة أقرب إلى قرية كبيرة يسكنها عدة آلاف من المواطنين يعملون بالزراعة، ويتاجرون ببعض المحاصيل الزراعية مقابل مواد مصنعة بسيطة مثل : القماش، والسكر، والكيروسين، التي كانت تحضر من دمشق والقــدس[١].

لهذا نجد أن معظم من سكنوا عمّان كانوا من العنصر العربي، إضافة إلى بعض الأقليات من الشركس، والأكراد، والأرمن، والذي عمل على استقرارها في المدينة الهروب من الاستعمار، أو من أجل العمل في وظائف الدولة السياسية والإدارية أو في النشاطات التجارية، من أجل هذا كان سكان عمّان خليطاً من أصول سكانية متعددة أهمها :

١- **الشركـــس** : وهم من الشعوب الآرية، وأصلهم من بلاد القوقاز، ويسمون أنفسهم بالأديفة، وهم مسلمون من غير العرب، استوطنوا منطقة شرقي الأردن في أماكن توافرت فيها المياه مثل عمّان ، وصويلح، ووادي السير، وناعور، وجرش، وكان موقع عمّان متوسطاً بينها، فعمل أهلها بالزراعة، واهتموا بتربية الماشية، وبذلك أصبحت عمّان نقطة التقاء التجار القادمين من القدس ودمشق.

٢- **اللازكي والداغستان** : وهم من الشعوب المسلمة التي هاجرت من القوقاز مع هجرة الشركس، واستقروا في شرقي الأردن منذ أواخر القرن التاسع عشر.

---

(١) حنان ملكاوي : مدينة عمّان (١٩٢١-١٩٤٧)، دراسة تاريخية، ص ٤٣.

٣- الأكـــــراد : استقر عدد من الأكراد في عمَّان، وكانت لهم محلة خاصة تعرف باسم محلة الأكراد.

٤- العقيـــــلات : وهم من العائلات التي قدمت إلى عمَّان، واستقرت فيها العقيلات القادمون من نجد، حيث أقام بعضهم في محلة رأس العين بعمَّان .

٥- المغاربـــــة : استقر عدد من المغاربة في عمَّان، وكانوا يمارسون التجارة.

٦- البخاريـــــون : فقد جاء عمَّان أواخر العشرينيات مجموعة من مسلمي بخارى، وعمل أكثرهم بالتجارة في السوق المقابل للجامع الحسيني، الذي عرف باسم سوق البخارية نسبة إليهم[1].

٧- اليمنيـــــون : أقام في عمَّان بعض اليمنيين، الذين عملوا بالتجارة، وكانوا أوَّل من أدخل تجارة الملابس المستعملة إلى المدينة خلال الحرب العالمية الثانية، إذ كان لهم سوق خاص في عمَّان باسم سوق اليمانية.

٨- المصـــــاروة : وجد في عمَّان جالية مصرية، وأقاموا فيها من أجل العمل والاستقرار.

٩- الأرمـــــن : استقر بعض المهاجرين الأرمن-الهاربين من تركيا- في عمَّان أوائل القرن التاسع عشر قرب السيل، وقد عملوا في الزراعة وبعض المهن والحرف.

١٠- الفلسطينيـــــون : قدم عمَّان في بداية القرن العشرين واستقر فيها عدد من العائلات الفلسطينية، ومن أشهرها القيسية، والنوابلسة،

---

(١) حنان ملكاوي : مدينة عمَّان (١٩٢١-١٩٤٧) دراسة تاريخية، ص ٦٤، ص ٦٥، ص ٦٧.

والكساونة، والبوريني، والعورتاني، وبذلك لم يبق الشركس العنصر الغالب على سكان عمَّان .

١١- السوريون والـــدروز : في بداية القرن العشرين استقر في عمَّان عدد من العائلات السورية، التي عمل معظم أفرادها بالتجارة منها : خير، أبو قورة، السعودي، البطيخي، وصبحا، والصفدي، والقطان، ودامر، وبرجان، وديرانية، وشقير، والمنجد، وغنام، والعقـــاد، والطبـــاع، والشربجـــي، وبدير، والسروجي، والحلبين والحمصي، والبارودي[1].

هكذا كانت عمَّان بمن سكنها، فكانت وما زالت أُماً تحتضن القادمين إليها من كافة الأجناس، حتى تآلفت دون قيود، وأصبحت العلاقة بين هذه الأجناس قوية لتمتد مع الأيام بالمحبة والألفة، وتبلورت بالمصاهرة والنسب.

لذلك لم يقتصر سكان عمَّان على الوافدين إليها من خارج الإمارة، بل استقبلت الوافدين إليها من المدن والقرى الأردنية، فاستقر فيها بعض العائلات السلطية منذ بداية العشرينيات، كما أقام في عمَّان بعض القادمين من سحاب، ومن مأدبا، ومعان، بالإضافة إلى ذلك استقر الطفايلة في العشرينيات بالسفح الشرقي لجبل الجوفة، فأقام معظمهم في الكهوف الموجودة في ذلك المكان.

فكان موقع عمَّان يتوسط بعض القبائل البدوية، لهذا كله كان للهجرة الداخلية والخارجية إلى عمَّان دور كبير في زيادة عدد سكانها، وتنوع الأصول السكانية فيها، فاندمج الجميع في مجتمع المدينة، كمواطنين لهم الحقوق نفسها وعليهم الواجبات نفسها[2].

---

(١) حنان ملكاوي : مدينة عمَّان (١٩٢١-١٩٤٧) دراسة تاريخية، ص ٦٨، ص ٦٩، ص ٧٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٧١، ص ٧٤.

بالإضافة إلى ما سبق نلاحظ أن أهالي مدينة عمّان تعرّفوا على تسميات معينة للأحياء التي سكنوا فيها، فهذه التسميات فرضتها ظروف نشأة المدينة، فكانت تطلق لمجرد حكاية أو حدث أو مناسبة، فجاءت تسميات هذه الأحياء كالتالي(١):

	التسمية الحالية	التسمية القديمة
١-	جبل عمّان	رجم الملفوف
٢-	جبل التاج	الخريطة (بتسكين الخاء والياء)
٣-	جبل اللويبدة	جبل اللويبدة
٤-	جبل الجوفة	جبل الجوفة
٥-	جبل (وادي) النصر	وادي أم الرمم
٦-	حي المهاجرين	المهاجرين (رأس العين)
٧-	جبل النظيف	جبل النظيف (رأس العين)
٨-	جبل المريخ	قبيب الغولة
٩-	جبل القلعة	القلعة
١٠-	حي الشابسوغ	الشابسوغ
١١-	وادي الحدادة	وادي الحدادة (بستان قعوار)
١٢-	حي واد سرور	واد سرور
١٣-	حي السيل	السيل
١٤-	حي المصدار	مصدار عيشة
١٥-	حي المعانية	المحطة
١٦-	حي الدبابة	الشعيلية

... تابع

(١) عبدالله رشيد : ملامح الحياة الشعبية في مدينة عمّان (١٨٧٨م-١٩٤٨م)، ص ٥٩.

التسمية الحالية		التسمية القديمة
١٧-	شارع الملك حسين	طريق السلط
١٨-	حي العورتانية	الأشرفية الشرقي
١٩-	حي خرفان	حي خرفان
٢٠-	جبل نزال	رأس العين
٢١-	حي المصاروة	حي المصاروة
٢٢-	حي الدروز	جبل عمّان

ومن أجل ذلك، نرى أن الروائيين اهتموا بذكر عمّان في رواياهم، لما تميزت به من حياة كانت بسيطة مبنية على اختلاط الأجناس من مختلف الأقطار العربية، ولما تميزت به من موقع جغرافي مميز ضمن إطار تاريخي فعّال في حياة البشر الذين سكنوا مدينة عمّان ، فأثرت بهم وتأثروا بها عندما استقروا في هذه المدينة الأم.

فمنذ عام ١٩٦٧م، شهدت الأردن مرحلة تأسيسية جادة للرواية الأردنية، وذلك بمفهومها الحديث شكلاً ومضموناً، فلمع أربعة روائيين مجودين هم : تيسير السبول، في روايته "أنت منذ اليوم" (١٩٦٨)، وأمين شنار، في روايته "الكابوس" (١٩٦٨م)، وسالم النحاس في روايته "أوراق عاقر" (١٩٦٨م)، وغالب هلسا، في روايته "الضحك" (١٩٧٠م)، وتعد هذه الروايات الأربعة الأساس الحقيقي الذي تم عليه بناء الرواية العربية في الأردن[1].

أما في مرحلة السبعينات شهدت الرواية في الأردن كثيراً من المعالم المضيئة، لكن العقد لم يشهد تحولات جذرية يمكن معه أن تعد السبعينات مرحلة متوهجة في مسيرة

(١) عوني الفاعوري : أثر السياسة في الرواية الأردنية، ص ٢١.

الرواية، لكن الثمانينيات شهدت نقله نوعية في الرواية، حيث بلغت الرواية مستوى من النضج جعلها تحتل موقعاً رئيسياً في الساحة الأدبية على المستوى المحلي(١).

فالرواية الأردنية ارتبطت ارتباطاً مباشراً بالقضايا العامة للإنسان العربي، فانبجست من الواقع المعيشي لهذا الإنسان، فكان الواقع العام والبيئة المحلية متداخلان إلى الدرجة التي يصعب فيها فصل انعكاسات البعد الواحد منهما عن الآخر في الشخصية العربية، وهذه السمة وجدت في شخصية الإنسان الأردني، حيث كان لها انعكاساتها الواضحة في التكوين الفني والفكري للشخصيات الروائية(٢).

فإذا تتبعنا واقع المجتمع الأردني، وجدنا أنه واقع انتقالي، أي أن المجتمع الأردني الحالي مجتمع جديد، سواء بتكوينه السكاني، أو بتوزيعه الجغرافي، أي أنه ظل يمر بمراحل تحول متلاحقة منذ قيام الإمارة إلى الآن؛ إذ تحولت قطاعات كبيرة من السكان حديثاً من الرعي إلى الزراعة، ونشأ عن هذا التحول قيام تجمعات سكنية حديثة أخرى، كما أن هناك قطاعات أخرى تحولت من الريف إلى المدينة، وهناك مجموعات كثيرة من البدو والمزارعين تركت مهنتها الأصلية إلى العمل الوظيفي(٣).

كما وجد متغير آخر في واقع البيئة الأردنية لا يقل أهمية عن المتغير السابق، وهو كثرة أعداد المهاجرين إلى الأردن، فقد ظلت القوانين والأنظمة الأردنية تعطي للمهاجرين العرب، بصرف النظر عن منشئهم حقوق المواطنة الكاملة لأسباب متعددة أهمها : الحاجة إلى خبرات ومهارات هؤلاء الوافدين، إضافة إلى دوافع قومية فيما يتعلق بمن نزحوا من فلسطين؛ والتاريخ المعاصر يعلمنا أنه ما من مجتمع عربي حديث تعرض لتأثيرات الهجرة الوافدة أكثر مما تعرض له المجتمع الأردني، لذلك لابد من التمييز بين البيئة التي تكون ملاذاً لهجرة دائمة، والبيئات التي تكون أمكنة للعمل المؤقت يعود بعده

---

(١) نبيل حداد : الرواية في الأردن فضاءات ومرتكزات، سلسلة كتب ثقافية تصدرها وزارة الثقافة، عمّان، ٢٠٠٢، ص ١٤.

(٢) المرجع السابق، ص ١٤.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٥.

الوافد إلى موطنه الأصلي، والأردن ينتمي إلى البيئة الأولى، حيث قدم إليه مباشرة بعد تأسيس الإمارة آلاف المواطنين السوريين، والفلسطينيين، والمصريين، والشركسيين، والعراقيين وغيرهم، وهذا كان خلال العشرينيات والثلاثينيات بخاصة، ثم جاءت الهجرة الفلسطينية الكبيرة أواخر الأربعينيات لتضيف بعداً جديداً في التكوين الديمغرافي، فكانت البلاد قبل تأسيس الإمارة بقليل قد استقبلت آلاف المهاجرين، وهناك متغير ثالث يعود إلى التوزيع الجغرافي للسكان الأصليين، ومن الموقع الجغرافي للبلاد، فالأردن بلاد تخوم المنطقة الشمالية والوسطى، تخوم متأثرة بالواقع الاجتماعي لسوريا وفلسطين، والمنطقة الجنوبية تخوم متأثرة بالواقع الاجتماعي الحجازي، أما المناطق الشرقية والشرقية الجنوبية فهي تخوم صحراوية تقطنها قبائل بدوية كثيرة، وهكذا تتباين الخريطة البشرية في الأردن بتباين أجزاء البيئة الواحدة. كما أن هناك عامل آخر مازال يؤثر تأثيراً كبيراً على واقع البيئة الاجتماعية والبشرية بعامة في الأردن، وهي سعي الكثيرين من أبنائه إلى العمل خارج الأردن ولاسيما في أقطار الخليج العربي[1].

وعند الانتقال للحديث عن عمَّان في الروايات المطروحة في هذه الدراسة نجد ذكراً بارزاً لمدينة عمَّان بما تتميز به من توافر الخدمات والأسواق وأماكن الترفيه، فمثلاً عند جمال ناجي في روايته "مخلفات الزوابع الأخيرة" يعرض الراوي مسيرة ثلاثة أجيال، فالرواية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمرحلة، فسبلو الغجري يمثل نقطة هامشية دالة في العمل يفتتح عملية التشكل المديني، ولكنه ينتهي لأن يكون مجرد ظل، مجرد بقعة ضوئية يشكلها عمود الكهرباء الذي يقف سبلو إلى جانبه دائماً. لقد جاوزته عملية التجدد وداسته أقدام الزمن المستعجلة، ومن هذا المعنى الرمزي لشخصية سبلو يشتق الروائي من رمز ابنته هاجار تعبيراً رمزياً آخر عن اندفاعه الحياة المتجددة وقدرتها على التشكل ضمن الانحناءات الزمنية، ودون أن تفقد براءتها الأولى وحبها للحياة الصافية وارتباطها بالجذور، فالراوي يحرص على تأكيد عزلة الوادي عن المدينة وعن العالم الخارجي في

---

(١) نبيل حداد : الرواية في الأردن فضاءات ومرتكزات، ص ١٦.

مدخل روايته وبداية حركتها حتى في هندسة بنائه، كما يحرص الراوي على تأكيد الأمر في مدخل الكتاب الثاني، فيلجأ الراوي إلى الرمز من خلال الكائنات الأخرى، مما حقق شمولية التجسيد[1] "ولكل كائن دوره في ليل الوادي، فحينما تطفأ الأضواء، وتخف الأرجل في المسارب والطرقات، يتعالى نباح الكلاب، وأزيز حشرات الليل عند المقبرة، ويتعالى مواء القطط، وخناءات قنالاتها الضارية على بقايا الطعام في أكياس القمامة الممزقة، لكن قطط الوادي لا تجرؤ على الاقتراب من جرزانه الضخمة المتحدية، قطط الوادي أعادت النظر في عدائها التقليدي للجرزان، بل ربما تحول ذلك العداء إلى نظرة متزنة، قادرة على الاعتراف بالواقع الجديد، الذي خلفه وجود جرزان 'العرسة' المستعدة أبداً للتكتل والردع[2]، فهنا تظهر العلاقة بين الوادي والمدينة، المدينة التي لا يذكرها المؤلف بالاسم حرصاً على تحقيق أكبر مدى ممكن من الاستبعاد المكاني، الذي يحقق له أقصى مدى ممكن من حرية الحركة.

لهذا نرى أنَّ أحد النقاد رأى أن هذا الوادي يمثّل المخيم بسكانه ومسكنهم، وفيما يعانون من صعوبة الحياة، لعدم توافر الخدمات، ذلك قبل دخول الكهرباء عندما اقتحمت الوادي وحولت حياة الناس إلى عالم آخر متطورٍ ومتقدم في ظل الحضارة، بالإضافة إلى دخول تمديدات المياه.

أمّا ما يمثل التقاء الوادي بالمدينة وتداخلهما ببعضهما البعض، كان كالتالي عندما بحث الغجر عن وسائل عيشهم في أحياء المدينة : (بحث غجر الوادي عن وسائل عيشهم في أحياء المدينة، بعضهم سجلوا أسماءهم عمال تنظيفات، بعضهم عملوا في مهن يدوية كالحدادة وتبيض الأواني والنقش، وبعضهم تخصصوا في تسليك المجاري

(١) شكري الماضي : هند، أبو الشعر : الرواية في الأردن، عمّان ، ٢٠٠١، ط١، ص ٤٣، ص ٤٤.
(٢) جمال ناجي : مخلفات الزوابع الأخيرة، ص ١٦٥، ص ١٦٦.

ونضح الحفر الامتصاصية في البيوت، وصار الناس يأتونهم من أحياء المدينة ليزيلوا عن بيوتهم كوابيس الروائح القذرة كلما فاضت تلك الحفر بما فيها(١).

أما عن التحولات التي طرأت على أهل الوادي عندما اقتحمتهم المدينة كانت عند دخول الكهرباء، كما في النص التالي: "هكذا فجأة تغير الليل في الوادي، وتحوَّل السكون إلى ضجيج وصفير وزعيق ! فجأة أخذ الشبان والصبية يتراكضون ويتصايحون بانفعال في الطريق وفي الأزقة المضاءة، كأنما بثت الكهرباء في أجسامهم وحناجرهم، طاقة لم يستطيعوا حيالها غير القفز، والصياح، والركض، ودخول البيوت من أجل مشاهدة نعمة الكهرباء، ونكهة التغير الجديد في حياتهـــــــم!" (٢).

أيضاً ما جاء كالتالي : "كثير من الأشياء في الوادي تغيرت بدخول الكهرباء، وصار الناس يسهرون أكثر، ويتمشون في الطريق، ويتجمعون تحت أعمدة الكهرباء، وتم تركيب سماعتين للمسجد من التبرعات الأسبوعية، المخصصة لصيانته، وكف المؤذن عن الآذان على سطحه بعد أن تعلم كيف ومتى يفتح الميكروفون ويغلقه، واعتاد السكان سماع صوت المؤذن في كل بقاع الوادي عبر السماعتين، على أنَّ المظهر الصارخ الذي رافق الكهرباء، هو دخول بعض الأجهزة الكهربائية إلى بيوت الوادي"(٣).

فعمَّان في الماضي تميزت بالبساطة، وامتداد العلاقات الأسرية، ورخص الأسعار، ووجود الألفة والمحبة بين سكانها، بالإضافة إلى التسامح السائد، ولكن مع تغير الزمان فيما بعد، بعد فترة ليست بطويلة، تغيرت عمَّان، وأصبحت تسودها الفوضى وعدم الاستقرار، كذلك ارتفعت الأسعار، وكثرت الخدمات في كافة النواحي، أيضاً استقلت كل أسرة بذاتها، وانقطعت الأسرة الممتدة، ولكن الجميل في عمَّان هو بنائها الفذ، ففي كل حي من أحيائها تلاحظ عمراناً رائعاً في تصاميم مختلفة وأشكالاً تكاد تكون

---

(١) جمال ناجي : مخلفات الزوابع الأخيرة، ص ٧٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٩٠.

(٣) المرجع نفسه، ص ٩١.

غريبة ومدهشة، كما أن السائر في شوارع عمّان ليلاً يلاحظ بوضوح أكثر ضجة المدينة في حركة السير، وسط الإنارة المنتشرة في كافة الشوارع ووسط أشجارها الخضراء التي تزين عمّان .

وإذا عدنا إلى رواية "زياد قاسم"، أبناء القلعة، نلاحظ أن الرواية تكاد تكون تاريخية، ولكن مع ذلك نراه يذكر عمّان في الماضي بما كانت عليه من علاقات وطيدة بين الناس ثم اختلفت فيما بعد، ويبرز الراوي تحول المدينة من مجتمع سادته الألفة والاتحاد إلى فوضى واستقلالية عندما ماتت فوزية في نهاية الرواية كالتالي : "الناس على الأرصفة صامتون واجمون، كأنه يوم الحشر ...؟ السيارات تتزاحم وسط الشارع بعصبية غريبة ... ماذا حلَّ بهذه المدينة ...؟ من أين جاءت كل هذه الحشود...؟ من هم هؤلاء الناس...؟ أشباح، أثاث، شاحنات، هل هم مغادرون...؟ ؟؟؟ هل هم قادمون؟ ... لماذا كل هذه الفوضى...؟ لا أحد يبالي بما يجري ...؟ لماذا؟ أين رجال السير ...؟ ... ماذا حلَّ بهذه المدينة ...؟ هل تحولت إلى محطة قطار ...؟ هل أصبحت صالة مطار ...؟ ثم لماذا المذياع ...؟ لماذا ينصتون بخشوع إلى الموسيقا...؟ ... أين الكلمات ...؟ لماذا الموسيقا...؟ العادات يا ناس...!. الموسيقا حرام في المأتم ... أناسه زوابع وصواعق وأعاصير ... لم يكونوا يوماً نكرة ... لن يكونوا أبداً عربات وحقائب ورزماً وظلالاً...أنتم أشباح أشباح أشباح ... لا شيء يتحرك فيهم إلا دخان سجائرهم ولا صوت يصدر عنهم إلا موسيقا مذياعكم ... مجرد موسيقا... موسيقا هادئة حزينة ... من هم واضعوها؟ ... من هم صانعوها...؟ ... هل أصبح للموسيقا دلالة أكبر من الكلمات ...؟ لماذا تبكي ...؟ أنا لا أبكي. وهذه الدموع ...؟ إنها مجرد دموع، مجرد دموع. تباً لهذه الموسيقا... لقد نومت المدينة، وأيقظت عفاريتــــها..." [(١)].

ففي هذه الفقرة تظهر تحولات المدينة، ونجد الفروق واضحة تماماً بين الماضي والحاضر.

---

(١) زياد قاسم : أبناء القلعة، ص ٣٩٤-٣٩٥.

أما في رواية "جمعة القفاري"، نجد أن الراوي يهتم بذكر المكان/عمّان، حيث ينتمي إليها، وذلك يبدو واضحاً من بداية الرواية، فنجده يبدأ الرواية قائلاً : "نعم. أنا جمعة القفاري (ما غيره) الذي عاش طوال حياته في عمّان الغربية لم يغادرها إلا في سفرات سياحية إلى أوروبا، أو للعلاج في أمريكا (...)نعم، بوسع الإنسان في الأردن أن يولد في عمّان الغربية ويكون فيها، دون أن يكتشف مجاهل 'جبل النظيف'، الذي تحتاج شوارعه إلى حملة تنظيف، ولا جبل النزهة الذي لا يصلح للنزهة. بوسعك أن تعيش من المهد إلى اللحد في عمّان الغربية، دون أن تضطر إلى زيارة الشوبك، أو معرفة المفرق، أو المرور بالطفيلة. أحياناً أذهب إلى فندق العقبة بالطائرة وأقضي في الفندق وعلى رمال الشاطئ وفي البحر أياماً، دون أن أخرج إلى الشارع – فأنا أعرف فنادق العقبة – لا العقبة نفسها"[1].

إننا نجد الراوي من خلال مفتتح الرواية يحدد انتماء الراوي – وهو جمعة القفاري- الفكري والطبقي من خلال انتمائه للمكان وهو عمّان ، فقد جعل جمعة القفاري منتمياً إلى عمّان الغربية التي تمثل مظهراً راقياً ومتطوراً، ومختلفاً عن عمّان الشرقية، فالطبقية تبرز في عمّان الغربية في حديث جمعة القفاري، الذي أشار على أنه لم يغادرها إلا في سفراته السياحية إلى أوروبا للعلاج في أمريكا، وفي كلتا الحالتين إشارة واضحة على أن جمعة –وهو أحد سكان عمّان الغربية- ينعم بثراء واسع، فلا يستطيع المرء السفر إلى أوروبا بقصد السياحة أو إلى أمريكا للعلاج إلا إذا كان ثرياً وهذه صفة سائدة على ساكني عمّان الغربية.

ونلاحظ أيضاً في حديثه عن عمّان الغربية مفارقة شديدة بين انتمائه إلى المكان المحدد بعمّان الغربية، فهو لم يغادرها إلا إلى أوروبا أو أمريكا بين استغنائه الكلي عن بقية الأمكنة التي لا تشكل للراوي جمعة القفاري أدنى أهمية، فهو يعيش في عمّان الغربية دون أن يضطر إلى اكتشاف مجاهل وأسرار "جبل النظيف" أو "جبل النزهة"، وكلاهما يشكلان أحياءاً من المدينة الكلية عمّان ، ثم نلاحظ أن الراوي يسترجع بذاكرة جمعة

(١) مؤنس الرزاز : جمعة القفاري، ص ٥.

القفاري إلى زمن أمه المتوفية، حينئذ كان جمعة طفلاً، مشيراً إلى ما كانت تقوله لابنها جمعة القفاري : "*هل تذكر عمّان حين كانت مدينة صغيرة؟ أهلها كأنهم عائلة واحدة؟ هل تذكر جبل اللويبدة حين كان أرقى جبال عمّان ؟*"(١).

إن هذا الاسترجاع إلى طفولة جمعة ما هو إلا ليؤكد على التحول الذي طرأ على مدينة عمّان ، فقد كانت مدينة صغيرة وأهلها يعرفون بعضهم، إلا أنّ التحول قلب الموازين، فلم تعد مدينة عمّان صغيرة الحجم، فهي مترامية الأطراف، وليس هذا فحسب، بل نجد الرقي والتطور تحوّل من أحيائها القديمة إلى أحياء جديدة أخرى.

والملفت للنظر في هذه الرواية أنّ مؤنس أبرز المكان بشكل واضح ودقيق، فثمة مقابلة بين عمّان الغربية وعمّان الشرقية، وذلك يظهر على النحو التالي :"وأكد جمعة مذكراً أنه لم يكسر كلمة "كثير الغلبة" في المطعم، وأن الكلمات تزور ولكنها لا تنكسر، وقال عن تركيبة جبل اللويبدة الطبقية والاجتماعية تبدلت تبدلاً جوهرياً، وأن أصحاب المجوهرات من أبناء الجيل الجديد والطفرة المشمشية، هجروا الجبل ليسكنوا في عبدون وأم أذينة تاركين العجائز والشيوخ في بيوت الجبل القديمة، هز الغلباوي منكبية وقال إن جبل اللويبدة جبل عجوز، وإن منطقة الشميساني التي كانت قفراً باتت مركز استقطاب الجبل الجديد والدماء الجديدة، ثم اقترح على جمعة أن يمضيا إلى أحد مقاهي الشميساني"(٢).

نلاحظ مما سبق أنّ الشميساني الذي يمثل حياً من أحياء عمّان الغربية أصبح مأهولاً بالأجيال الجديدة من أهل عمّان الشرقية، وكذلك من غير الأردنيين، في حين تحول جبل اللويبدة إلى مكان عجوز لا يبعث على التجدد وتسكنه الأجيال المتقدمة من

---

(١) مؤنس الرزاز : جمعة القفاري، ص ٨.

(٢) المصدر السابق، ص ١٥٠.

العجائز، ثم نجد الراوي يصف لنا ليل عمَّان إذ يقول : "ثم أقبل الليل وما كانت تفوح منه رائحة المدينة... التي لا رائحة لها"(١).

فالراوي لم يخلق مدينةً من خياله، بل قام بوصف عمَّان بما تشهده من تحولات اجتماعية وثقافية وحزبية، كما وجدت هذه التحولات عند زياد في أبناء القلعة.

أما في روايته "الشظايا والفسيفساء" تبدو مدينة عمَّان كما كانت سابقاً عن المدينة، بأنها تبدو مدينة استقرار، وذلك جاء كالتالي : "استقر في جبل المتقاعدين، جبل اللويبدة، صديقه الكاتب الأردني الذي تركه في بيروت قال له : إن عمَّان مدينة المتقاعدين"(٢).

فنرى الراوي يتحدث في موطن آخر عن عمَّان، فهو شديد الاعتناء بها، فيصور عمَّان ويصف ما طرأ عليها من تحولات، فهي لم تعد تبدو كما كانت في الخمسينيات، حيث يقول : "الوجوه مظلمة، عمَّان الصغيرة حيث يعرف الكل الكل انتهت وانشطبت"(٣).

ومن التحولات والتطورات التي طرأت على مدينة عمَّان ما صرَّح به الكاتب في قوله : "الجبال السبعة القديمة انتقلت إلى وسط عمَّان ، تراجعت المزارع واختفت الأشجار في بطن الأرض، وقامت مناطق أنيقة بلا بقالات ولا صبي بقال، بلا حارات، ولا عصابات من الصبية، الجبال تومئ نحو وسط البلد وخاصرتها، كانت تقف على حافة لحظة التداعي، لكنها تميل ولا تتداعى، السماء هابطة محدودبة، الشوارع تتدفق مثل أنهار لا تنهار، كأن قوة خفية عجائبية خارقة تتشبث بخيوط التماسك الهش"(٤).

هنا نلاحظ أن انتقال الجبال السبعة القديمة إلى وسط البلد إشارة إلى الامتداد العمراني التي شهدته عمَّان ، وكذلك تراجع المزارع واختفاء الأشجار دال على الزحف

---

(١) مؤنس الرزاز : جمعة القفاري، ص ١٦٥.

(٢) مؤنس الرزاز: الأعمال الكاملة، ص ٥٥١.

(٣) المصدر السابق، ص ٥٧٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ٥٧٩.

العمراني الذي قضى على المساحات الفارغة في مدينة عمَّان، فلم تعد هناك مساحات بلا عمران، ولم تعد للأشجار الدالة على الريف أكثر منه إلى المدينة؛ فالراوي قام برسم أبعاد المدينة في روايته، فبدت مدينةً ذات طابع تحولي، فسرعان ما انتقلت به عمَّان من المدينة الصغيرة إلى المدينة المعقدة، فهي لم تحافظ على طابعها القديم بل زحفت إليها التحولات العمرانية، وذلك بفعل ما شهدته المنطقة العربية من أحداث سياسية واقتصادية، كل هذا ساهم في جعل عمَّان تبدو وكأنها مدينة بلا هوية أو بلا أصل.

فالرزاز جعل عبدالكريم وكذلك سمير اللذين استقرا في عمَّان يعيشان في عزلة، فلم يقدرا على التأقلم في مدينة عمَّان ، كذلك هو الحال "لجمعة القفاري" في عزلته وبعده عن المجتمع في الرواية الأخرى، وفي النهاية يقوم عبدالكريم بالقضاء على عزلته من خلال العودة إلى ممارسة العمل السياسي الحزبي، بينما سمير قضى على عزلته في إدمانه الخمرة.

أما رواية "دفاتر الطوفان" لخريس، نجدها مولعة بذكر مدينة عمَّان ، وهي شديدة التعلق بها، بجمال أسواقها وشوارعها، وجبالها، والعلاقات الجميلة بين السكان، كما أنَّ الروائية تعشق هواء عمَّان ، وذلك يتضح في الرواية في ماضي مدينة عمَّان كالتالي : "أسواق المدينة عامرة بكل ما لذ وطاب، يحبون السكاكر واللحوم، ويقبلون بلهفة على كل سلعة جديدة، ولكنهم يعتزون بمنتجات أيديهم وصنع نسائهم مما يسمونه حواضر البيت ... لله درُّ عمَّان ما ألين العيش فيها وأرخص التكاليف، يبيعون عشرين كيلو من دبس العنب أو البلع بدينار ورطل السكر الأبيض الفرط، أو المكعبات بأربعة قروش، وخمس بيضات بقرش".[1]

أيضاً ما جاء في اختلاط الأجناس البشرية في مدينة عمَّان كالتالي : "أهل عمَّان القادمون من كل مرافئ الدنيا، يتباينون في مشاربهم ومطاعمهم، يتوافقون في أحلامهم

---

(١) سميحة خريس : دفاتر الطوفان، ص ٢٤٩.

ومطامحهم، ولعمري لم أر في بقعة من الكون أمة تحلم حلماً واحداً لا يريبم إلا على هذه البقعة العجاب..." (١).

وفي الرواية ذكرت الراوية بعضاً من ملامح التغير في مدينة عمّان كالتالي : "المدينة ملأى بالشباب المبيزين أما النساء فقد تمردن سريعاً على الثوب الفلاحي، كأنهن هاربات من جلودهن وعمّان تغذ الخطى نحو المدينة..." (٢).

وأما في روايتها الأخرى "شجرة الفهود ... تقاسيم العشق" جاء فيها ذكر مدينة عمّان بشكل بارز منذ بداية الرواية، فتأتي بذكر عمران المدينة الذي ازداد في مدينة عمّان بشكل غير مباشر كالتالي : "نهبط إلى شارع السلط في قلب عمّان كأننا ننزل بحراً، نغوص في جوف المدينة تحيط بنا الأبنية على الجانبين، ألا يحتمل أن تقع ؟ أن تطبق جانبيها على الممر الضيق فنموت ؟ هواجس غريبة تنتابني وأنا أتأمل الجبلين، اللويبدة والحسين يرتفعان حولنا ونحن نمضي قدماً إلى وسط البلد..." (٣).

وتتحدث الروائية في موطنٍ آخر عن طبيعة الحياة بشكل عام في الرواية، متحدثة عن الصخب والحركة الدائمة، وذلك كما جاء على النحو التالي : "أصعب ما علي أن أتأقلم معه صوت الطائرات ... في إربد يعني غارة، وفي عمّان يعني مسافرين وقادمين ... سياحاً وتجاراً ... وقع صوتها مختلف، وكلما شق نشيجها صدر السماء شرخ الفزع صدري، وانبطحت أرضاً..." (٤).

ففي هذه الرواية يظهر العشق المتبادل بين الروائية ومدينة عمّان، فأكثرت في تغزلها بهذه العاصمة –عمّان – في مواطن كثيرة في روايتها كما جاء على النحو التالي : "فجأة أشهق أنفاسي قبل أن تهبط السيارة الطريق المتدحرجة، وعبر الفضاء الفسيح بين الجبال لاحت عمّان مسدلة على جبالها وبيوتها غلالة غبش شفيف، يا ذا الجلال ... الله الله يا

---

(١) سميحة خريس : دفاتر الطوفان، ص ٢٤٧.

(٢) المصدر السابق، ص ١١٢.

(٣) سميحة خريس : شجرة الفهود ... تقاسيم العشق، ص ٣٣.

(٤) المصدر السابق، ص ٩٠.

عمَّان ... جوهرة الدنيا وحبة قلبي، توارت الشمس وراء غيماتٍ سود وظلت ترسل بخيوط من نورها ونارها، تتسلل عبر الكرات الصغيرة في مهرجان الغيم، وتسكب الضياء فوق المدينة الغافية... تستحم عمَّان بوعود الشمس القادمة، لهفي على المدائن يقبضن قلبي..." (١).

فالمتأمل لهذه الفقرة يلاحظ قوة العلاقة الوطيدة بين عمَّان والروائية، فتأتي بذكرها حبيبة ولا أحد ينافسها في جمالها البهي، وغموضها البراق الذي ما زال يخبئ ورائه الكثير، فجمالها لا يزال مستمراً نحو تقدم رائع في ظل شعبها ومليكها حفظه الله.

أما في رواية "الشهبندر" لهاشم غرايبة، نلاحظ تميز الرواية في ذكر أحداثها داخل مدينة عمَّان، والتحولات التي طرأت على هذه المدينة، وذلك كان كالتالي : "تطوُّر هذه المدينة عصيّ على الفهم. كنت أقول وأنا طفلٌ صغير الزراعة سر عمَّان والسيل شريانها الحي ... ثم اقتنعت أنَّ التجارة هي روح عمَّان ، والقطار عصبها النابض ... قطار عمَّان الجديد ... لكن ما يحدث أنَّ القطار يتراجع دوره ويضعف أداؤه، والمدينة تكبر وتزداد قوة! ... يبدو أن السياسة هي نهر عمَّان الجديد ... الاضطرابات من حولها في فلسطين وسوريا ولبنان والعراق، تضخ إلى عمَّان فائض إنتاجها من البشر والبضائع، وعمَّان تعيد التوزيع!..." (٢).

فعلى الأغلب مما سبق أن التحولات تنبع من ظروف سياسية قبل كل شيء من اضطرابات وحروب وقتل، ثم يأتي كل هذا منعكساً على عمَّان في كافة النواحي، وخصوصاً الأسعار التي ترتفع يوماً بعد يوم.

ويأتي ذكر عمَّان في موطن آخر في الرواية، فيتحدث الراوي عن جمالها ورقيها المتأصل منذ القدم كالتالي : "أحبُّ عمَّان : لا غنى فاحشاً ولا فقر مدقعاً ... أحب عمَّان ، حيث لا فضل لعربي على عجمي، ولا منة من مقيم مهاجر، ولا تجبُّر من سيّد على مسود ...

---

(١) سميحة خريس : شجرة الفهود ... تقاسيم العشق، ص ٢٣٦.

(٢) هاشم، غرايبة : الشهبندر، ص ٢٨١.

ظلت عمّان تجير من استجار بها، حتى انطبق عليها ما قاله السموأل في المروءة : لنا جبل يحتله من نجيره ... منيع يرد الطرف وهو كليل..."[1].

ويذكر الراوي أيضاً في إحدى صفحات الرواية جماليات عمّان وبهائها، ففيها الرقي وفيها الأصالة، وذلك جاء كالتالي : "عمّان متهيبة من قادم الأيام، ومتى كانت عمّان لا تتوجس من عوادي الدهر ... السوق مضطرب والموج عال بحسب تعبير المراكبية، ولكني أمسك (الدقل) بثقة وأمل ... فلا مناص من حبِّ عمّان الراهنة إلى جانب عمّان الخالدة : فلو غرقت أراها منتصبة، ولو شوهت أراها بهية، ولو افتري أراها أبيَّة ... عمّان هي التجربة الخاصة الحميمة، هي أنا الشهبندر، وقد تضخمت وترامت أطرافي حتى صرت بحجم تلالها السبعة، عمّان أنت، وهي، وهم، بعد أن يتجرد الجميع من (القحمة) الكبيرة، والزيف، والتزوير، والادعاءات البلهاء ... عمّان ليست سيل ماء، وينابيع ثرة، وآثاراً شامخة، وبيادر وأبنية وبشر، عمّان ليست سوقاً، وقطار بضائع، ومحطة سفر للعابرين، عمّان ليست مجرد دور سياسي في المنطقة، وليست رمية نرد، أو فرشة أسفنجية تمتص فائض الأزمات من حولها : عمّان أسلوب حياة، ونمط عيش، فإما أن تحبها أو تحبها.."[2].

٢- من الواحدية إلى التعدديّة

أ- الأبعاد التاريخية لعمّان — من مدينة إلى عاصمة :

إن البعد التاريخي للمكان / عمّان يرتبط ارتباطاً جذرياً بفعل الكينونة من أجل أداء طقوس يومية للعيش، فيشكل المكان، والزمان، والحركة، والحياة ماهية الوجود في هذا العالم، فالمكان التاريخي لا ينهض إلا عبر المبدعين، ولا تتوضح معالمه الفكرية إلا عبر من يفهم لغته، فالمكان ليس بناءً خارجياً مرئياً، ولا حيزاً محدود المساحة، ولا

---

(١) هاشم، غرايبة : الشهبندر، ص ١٧٨-١٧٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٤١.

تركيباً من غرف وأسيجة ونوافذ، بل هو كيان من العمل المغيِّر والمحتوي على تاريخ ما، والمضمخة أبعاده بتواريخ الضوء والظلمة[1].

ففي القرن التاسع عشر قام عبدالله رشيد بإجراء مسح ميداني لمدينة عمَّان بقصد دراسة نشأها وتطورها، فلم يعثر على ما يثبت أن هنالك جماعات بشرية استقرت في المدينة في أواخر القرن التاسع عشر عام ١٨٧٨م، وهو العام الذي شهد انبعاث الحياة فيها بعد قدوم الشراكسة القفاس من الإمبراطورية الروسية. كما أكدَّ أحد المؤرخين في الأردن أنه لا توجد نصوص يمكن الاستناد إليها لإثبات أن المدينة كانت مأهولة في الفترة الممتدة ما بين أواخر القرن الرابع عشر ومطلع القرن التاسع عشر، ومن هنا يمكن الاستدلال على أن المدينة كانت خالية من سكان مقيمين نحو خمسمائة سنة، والمرجح أن قبائل البدو ظلت تقيم في منطقة البلقاء وخصوصاً بالقرب من جدول ماء عمَّان. إذن لم تكن عمَّان مسكونة قبل عام ١٨٧٨م، بل بقيت مجرد مجرى للماء يرده العربان إلى أن استقر فيها الشراكسة وعمروها كما عمروا جرش، والزرقاء، ووادي السير، وناعور[2].

فتوسطت مدينة عمَّان بعض العشائر البدوية وهي : الحديد والدعجة وعباد والعدوان وبني صخر وبني حسن، فاتسمت العلاقات بين تلك القبائل بطابع العداء والتحدي، مما أدى إلى انعدام الأمن والاستقرار في منطقة البلقاء، وبعض مناطق شرقي الأردن، لكن السلطة العثمانية، بدأت تفرض سيطرها على مراكز البلاد الأساسية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بعد هزيمة إبراهيم باشا واندحار قواته من سوريا عام ١٨٤١م، ومرت البلاد بالرغم من ذلك بعقد كامل من الفوضى العامة والهيمنة البدوية بشكل خاص، فشرعت السلطات بإعادة ربط البلاد إدارياً بالوحدات المجاورة

(١) محمد العضايلة : المكان الأردني : دراسة في الشعر الأردني المعاصر، رسالة ماجستير، مؤتة، ٢٠٠٣، ص ٣٥.

(٢) عبدالله رشيد : الكتاتيب ونظمها التقليدية في مدينة عمَّان (١٩٠٠-١٩٥٨)، منشورات أمانة عمَّان، ٢٠٠٢، ط٢، ص ٣٢٩.

في فلسطين والشام، أما منطقة البلقاء ومركزها مدينة السلط فقد تبعت متصرفية نابلس عام ١٨٨٢م، إلا أن سيطرة الدولة لم تكن كاملة بل اقتصرت على بعض المدن والمراكز التي انتظمت فيها القوات العسكرية[١].

ففي تلك الفترة لم يكن عدد القوات كافياً لفرض سيطرة الدولة، إذ لم يتجاوز عدد جنودها بضعة آلاف، فلا غرابة أن تتفشى حوادث القتل والنهب في ولاية سوريا أو منطقة البلقاء على وجه الخصوص، ولعل ميزان القوى بين قبيلتين كبيرتين مثل العدوان والصخور كان يميل إلى الاعتدال في بعض الأحيان، بدليل توجههما نحو السيطرة على أراضٍ زراعية خصبة في مواقع عديدة من البلقاء وميولهما لاستثمار الأرض والتحول إلى أسياد[٢].

أما في بداية القرن العشرين أخذت مدينة عمّان تحتفظ بطابعها الشركسي تدريجياً على جانبي السيل، لكنها شهدت في الوقت نفسه تطوراً ملموساً في مختلف الصعد الاجتماعية والاقتصادية، ويعود هذا التطور حسب الظن إلى عاملين : الأول استمرار توافد العائلات العربية من مختلف المناطق المجاورة للمدينة، وحتى من الأقطار العربية، والثاني مد خط السكة الحديد الحجازي الذي وصل عمّان عام ١٩٠٣م، ثم تابع سيره حتى مدينة معان في جنوبي الأردن.

وهكذا بدأت المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية على أرض عمّان واضحة للعيان، إذ أصبح للشراكسة شركاء، وأصبحت عمّان كما يقول خير الدين الزركلي : "*مبتغى للربح ومطلباً للكسب، بعد أن جاء إليها تجار من دمشق ونابلس، افتتحوا حوانيت صغيرة قصدها أهل الخيام والأكواخ من البداة الضاربين حولها والمقيمين في ما جاورها من القرى، فأصبحت ولها شأن*".

---

(١) عبدالله رشيد : الكتاتيب ونظمها التقليدية في مدينة عمّان (١٩٠٠-١٩٥٨)، ط٢، ص ٣٣٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٣٠.

لقد كانت عمَّان في أواخر القرن التاسع عشر، مجرد بقعة جغرافية مهجورة، لا يفد إليها إلا بعض البدو المجاورين لها طلباً للاستسقاء من سيلها القديم، و لم يكن أحد من الناس يأوي إليها كدار إقامة دائمة، حتى جاء إليها الشركس عام ١٨٧٨م وبنوها من جديد، فانتعشت المدينة بقدومهم، وحفز ذلك بعض الأردنيين والعرب على الرحيل إليها، بحثاً عن مصادر الرزق في شتى أعمال الزراعة والتجارة، فازدهرت عمَّان أكثر فأكثر حتى طابت في نفس الأمير عبدالله بن الحسين مؤسس الدولة الأردنية الجديدة، وجعل منها عاصمة الإمارة عام ١٩٢١م، وإذ أصبحت كذلك، تقاطر الناس إليها، متخذين منها موطناً يطمحون فيه إلى الرقي بمعاشهم وعلومهم(١).

ومما سبق، اتخذ الروائيون عمَّان في رواياتهم، ذاكرين تكوين المجتمع الأردني منذ تأسيسه، فبرزت الأبعاد التاريخية لمدينة عمَّان في هذه الروايات، فطرأت التحولات في المدينة عبر التاريخ، فكان لكل مرحلة تاريخية طابع خاص في كافة النواحي، فالتحولات الاجتماعية في رواية "*مخلفات الزوابع الأخيرة*"، ارتبطت ارتباطاً كلياً بالتاريخ المعاش في زمن معين، وظهر ذلك بوضوح عند اقتراب السكان من المدينة، فابتلعتهم المدينة عندما تحول الوادي المهجور المجاور للمدينة إلى تجمع سكني، ذلك الوادي الفسيح الممتد الذي لا يخضع لقانون عندما تحوَّل إلى مكان معمور بالسكان، ومما يمثل بدء الأحداث في حقبة زمنية معينة ما جاء كالتالي : "*قبل عشرات السنين، لم يكن هنالك مكان اسمه 'وادي الغجر'، ولم تكن هذه التسمية ممكنة، لأن حشود الغجر أقامت عند الأطراف الجنوبية للمدينة ... كل ما هنالك أن بعض سكان الأرباض، اعتادوا عبور الوادي بجمالهم، ليختصروا المسافات التي تفصلهم عن أقاربهم ومعارفهم في المناطق الأخرى، لكن تلك الجمال بوسيجها المتكرر في الوادي أوجدت مسرباً خالياً من الأعشاب في القاع، وصار بمكنة من ينظر إلى القاع من أي بقعة في الجبال المحاذية أن يرى بوضوح، ذلك المسرب الرفيع المتعرج... هذا كل ما شاهده 'سبلو الغجري' من آثار للحياة في الوادي يوم ارتحاله إليه ! آنئذ، لم تكن صخور الوادي قد*

(١) عبدالله رشيد : الكتاتيب ونظمها التقليدية في مدينة عمَّان (١٩٠٠-١٩٥٨)، ص ٣٣٥-٣٣٦.

روضت، ولم تتخذ مساربه أشكالها الحالية المتفرعة من القاع المطمئن، إلى الأشفار المتأرجحة ... كان الشريطان الضيقان المحاذيان للقاع، يستقبلان كل عام بذور الحبوب التي تذروها أصابع عثمان أبو بركة وأسرته، والخضرة تطفر من الأرض، بعد أن تفض الأمطار بكارة زينك الشريطين المزروعين..." (١).

ومما سبق نلاحظ ذكر تفاصيل المكان ضمن حقبة زمنية معينة، فجاءت بشكل عابر دون ذكر أي مسميات لهذا المكان، في تحديد موقعه.

أما في رواية "أبناء القلعة"، نرى أنّ الراوي ركزّ على الناحية التاريخية، فتحتل عمّان قاعدة محورية في هذه الرواية، فكل الأحداث تصب فيها، فالرواية أخذت على عاتقها إعادة بناء عمّان من جديد، لقد أرّخ زياد قاسم في روايته من ناحية فنية تطور المجتمع الأردني في علاقته الحية النشيطة بما يجري حوله من أحداث، واستطاع أن يعيد إلى الحياة ببراعة نادرة حقبة تكاد تضيع من ذاكرة من عاصروها، فتنطلق الرواية لتتحدث عن عمّان منذ الحرب العالمية الثانية وحتى نكسة حزيران عام ١٩٦٧م، فيحشد الكاتب جميع الخطوط في روايته في تصاعد درامي يمهد لنكسة حزيران عام ١٩٦٧م، وزياد قاسم بذلك يستبطن الهم المحلي في الأردن بشكل خاص والعربي بشكل عام، فيغلب الطابع القومي على أدائه، والمتبع لخطوط الرواية يلاحظ توافد الكثير من الهجرات التي صنعت التاريخ بالنسبة لمدينة عمّان ، وأولها هجرة الشركس إلى عمّان كأقدم الهجرات متمثلاً ذلك بعائلة شمس الدين الشركسية التي شكلت الارتكاز والانطلاق في بناء عمّان مطلع هذا القرن(٢).

فتمثلت هجرة الشركس بعائلة شمس الدين التي جاء بها الراوي في مقدمة الرواية كالتالي : "ينتمي شمس الدين إلى عائلة شركسية عريقة، عرفت بالثراء والفروسية، حارب ضد الانجليز إلى جانب الأتراك، وبعد أن أخفق الفيلق الشركسي من الوصول إلى سوريا، نجع

---

(١) جمال ناجي : مخلفات الزوابع الأخيرة، ص ١٢.

(٢) نضال الشمالي : تجربة زياد قاسم الروائية، ص ٥٠-٥١.

شمس الدين وعدد من رفاقه في الانضمام إلى القوات العربية هناك، فقاتل ضد الفرنسيين في معركة ميسلون، وأصيب في المعركة بجرح بليغ أقعده طريح الفراش أكثر من شهر ... بعد عودته إلى عمَّان التحق بالحرس الأميري لمدة ليست طويلة، لينتبه بعد ذلك إلى العقارات التي ورثها عن أبيه...".[1]

وتتحدث الرواية أيضاً عن هجرة الفلسطينيين بعد نكبة ١٩٤٨م، فتكشف عن أحوالهم كما تتحدث عن جملة متفرقة من الهجرات صاحبت هذه الهجرة كهجرة الشوام بعد الانتداب الفرنسي إلى عمَّان، وذلك تمثل في الرواية كالتالي :"وحلت بالفلسطينيين نكبتهم الأولى، وأخذت أفواج اللاجئين تصل إلى عمَّان ، فاستقبلتهم المدينة بتلالها المكشوفة ووديانها الضيقة، وأطلالها المهترئة، فأسرع الناس إلى جوانب السيل، والسفوح القريبة منه ينصبون خيامهم ويرفعون عرائشهم، ويبنون أكواخهم، ويخنقون ذكرى الهجرة في إرادة الحياة..." [2].

فهؤلاء أسهموا في بناء مدينة عمَّان، ومنهم عائلة خليل منعش القادم من يافا، وأنور علي الفلسطيني الفلاح، وخالد الملاّ العراقي، وأنطوان اللبناني، وحرَّان البدوي، فالراوي احتاج إلى هذا الكم الهائل من النماذج البشرية ليرسم لنا مدينة عمَّان بنواحيها التاريخية، ويصور لنا وقائع حية كانت هناك.

ومن هنا برزت الضرورة الفنية والتاريخية لوجود الشركسي، والشامي، والفلسطيني، والعراقي، واللبناني، والبدوي، إلى جانب الشخصيات المحلية الأردنية.

فالراوي قام بتوظيف بعض الشخصيات التاريخية لرموز في خطوطها العامة مثل شخصية (كلوب) القائد الإنجليزي، و (عبدالناصر) وشخصيات حزبية مثل (البيطار)، كما يقحم زياد قاسم بعض هذه الشخصيات في جوانب من المحاورات الحاصلة، فمثلاً قبيل تعريب الجيش حدثت مظاهرة عمَّانية هائلة ضد القيادة الإنجليزية، فتنقل عدسة

(١) زياد قاسم : أبناء القلعة، ص ٨.

(٢) المصدر السابق، ص ١٣.

الراوي إلى مكتب الجنرال (كلوب) ويدور الحوار التالي بينه وبين مساعده، عندما أراد طمأنة الجنرال عن أحوال المظاهرات كالتالي : "قال المساعد بوجل، ما يهمك يا سيدي، فعطة زعران، لم ينظر إليه سيده وربما لم يسمعه، أو اعتاد على أن لا يسمع له، كان لديه قناعة بأن العرب لا يصرحون عادةً بالأمور السيئة، هزَّ رأسه وقلب شفتيه وقال : عرب جرب، مين علمهم أكل ملعقة، بين علمهم لبس بنطلون؟"(١).

أما في رواية "جمعة القفاري"، لمؤنس الرزاز، نلاحظ أن الراوي يقل اهتمامه في النواحي التاريخية، بذكر تفاصيلها، إلا أنه يذكر بعض الرموز التاريخية ممثلة بالشخصيات، وذلك على النحو التالي : "نانسي تقرأ بنهم عن تاريخ الأردن المعاصر، وتشكو من أنَّ المصادر عزيزة. ونعمان العموني يقرأ 'محمد عابد الجابري'، ويقول أن محمد عابد الجابري يؤسس للنظرية التي سيبلورها هو ... ونانسي تأخذ وجهها بين يديها مستيئسة ترجم النعمَّان بالنهم، وهو يسترق النظر إلى شاشة التلفزيون ويشاهد شباب الأرض المحتلة يرجمون الجنود الإسرائيليين بالحجارة، فيشبك ساقاً بساق ... تقول نانسي أن نعمَّان يعرف عن الحرب الأهلية الأمريكية أكثر مما يعرف عن 'ماهية الكرك' ويعرف عن تروتسكي أضعاف ما يعرفه عن حسين الطراونة أو عودة أبو تاية. ويعرف عن عائلة 'البوربون' أكثر مما يعرف عن بني صخر. وأنها قرأت عن تاريخ الأردن والعشائر، أما النعمان فإنه لا يقرأ سوى دليل الهاتف ...'(٢).

أما في روايته الأخرى "الشظايا والفسيفساء" نرى أن هذه الرواية تمثل المرحلة الزمنية الممتدة ما بين الخمسينيات إلى التسعينيات من هذا القرن، وهناك محطات زمنية تشير إلى مرحلة الخمسينيات وسنة ١٩٧٠م و سنة ١٩٨٢م و سنة ١٩٩٣م، فيشترك كل من عبدالكريم وسمير في زمن الاستقرار في عمَّان، فينتمي عبدالكريم إلى الحزب في عمَّان، ونرى أنَّ الراوي يهتم بذكر الأحزاب السياسية في رواياته ويركز على ذكرها،

---

(١) زياد قاسم : أبناء القلعة، ص ١٠٤.

(٢) مؤنس الرزاز : جمعة القفاري، ص ٩٧.

ففي هذه الرواية يجعل الراوي عمَّان بعيدة كل البعد عن التشكيل الوزاري، أو بعبارة أدق بأنه ليس لها ثقل في تشكيل الحكومات، بل العشائرية هي المعنية بتشكيل الوزارة، وعمَّان تخلو من العشائرية والجهوية، وهذا واضح في قوله : "عمَّان طبعاً ... تبقى خارج الجغرافيا والعشيرة والجهوية، لا محل لها من إعراب التشكيل الوزاري؛ لأن عمَّان لا أصل لها إنها مدينة القومية العربية الفاضلة..." (١).

فالراوي يأتي بعمَّان بأن لا أصل لها، وربما في حديثه هذا يقصد كثرة الأجناس البشرية الذين قدموا إلى عمَّان، من أجل الإقامة والاستقرار فيها.

وفي رواية "دفاتر الطوفان" نرى أن الرواية تهتم بذكر تاريخ عمَّان في الماضي، فتذكر بشكل غير مباشر استقطاب عمَّان لأجناس مختلفة استقرت بها، فأصبحت الحلم الهادئ الوديع لهؤلاء البشر، وذلك جاء كالتالي : "تلك الجبال الراسخة القائمة المحروسة بالقلعة هي الجنة، حلم الأسير بالحرية، والغريب بالبرية، والجائع بالسنبلة، والمؤمن بالوسيلة والفضيلة، كي لا يكون في كل هذا الهوى بعدما عرفت من طعان زماني ما عرفت، وشرقت وغربت، ثم أنخت الروح عند سفح الجبل، وقلت اقبليني يا عمَّان، يا عمون، يا فيلادلفيا العتيقة، أنا سيف الدين الغساني، عبدالله الفقير إلى رحمته، الطامع في جنته، الراضي بقضاء ربه، الحالم كما حلم المؤمنين بفيئك، وكف رحمتك، عمديني كما المسيح في طاهر أردنك ... عمَّان ولها في نواصيها من كل زمان خاتم، وشاهد ونصيب، مسكونة بالتاريخ في عمقها، محروسة به من كل صوب واتجاه، العالم الألف الأول قبل الميلاد ترك رجم الملفوف، برج المراقبة الذي أقامه العمونيون في زمان ربة عمون الزاهر، عيون ترقب المدينة، وتحمي الديار من الطامعين، وصراع مازال صليل سيوفه يصلنا في الأمسيات الكاشفة، كأن سيف العموني يطلق الشرر إذا ما التقى بسيف العبراني، عندما يرى أهالي عمَّان برقاً يضيء في الفضاء من ناحية الرجم، يعلمون أن أرواح المتعاركين عادت واختلست لحظات من مساء صامت خاشع لتذكرنا..." (٢).

---

(١) مؤنس الرزاز : الأعمال الكاملة، ص ٥٥٧.

(٢) سميحة خريس : دفاتر الطوفان، ص ٢٣٨.

أيضاً تسرد الراوية تاريخ مدينة عمَّان بما تعاقب عليها من أمم وحضارات كالتالي :"محاطة عمَّان بالتاريخ من مختلف الجهات، مكثف فيها كقطرة مسك في المكان، في الأعلى يطل على الكون عمود هرقل، وبقايا معبد مسور، سارداً حكاية العصر البرونزي الوسيط قبل ميلاد سيد الدنيا عيسى المسيح، معبد موصوف بالفسيفساء وقاعات مبلطة تنفتح على شارع ممتد يزدان بأعمدة منقوشة، تنتهي إلى عنان المسجد الأموي العريق الذي بناه الوليد الثاني الأموي عام ٧٤٢م، لا تكتمل القبة المستديرة الكبيرة كأنها حرف إلا بعمود هرقل إلى الجانب المقابل من قمة الجبل، هناك حيث بإمكان الملوك الذين عبروا، ثم غبروا، أن يطلوا على المدينة الباقية تعاين أيامها بعدهم، وكأنها خارج الزمان ... عمَّان التاريخ تستريح في الساحة المفتوحة قرب سيل ماء، حيث المسجد العمري، الذي احتل مكانه منذ زمان ابن الخطاب، ثم هدمته النوائب والزلازل والسنون، فأعيد بناؤه مرات، كانت الأخيرة في عهد الأمير الهاشمي عبدالله بن الحسين، هدم زلزال ١٩٢٨م مئذنة المسجد فأعيد ترميمها، وقد ركعت وسجدت فيه، وفناؤه رمل.. " (١).

ويأتي في موطن آخر الحديث عن الطوفان الذي اجتاح مدينة عمَّان، فكان ذلك في عام ١٩٣٨م، وذلك كالتالي : "في الشهر الأخير من عام ألف وتسعمائة وثمانية وثلاثين ومع بداية المربعانية، أصبت بلوثة ورغبة عارمة في هز أعطاف المدينة النائمة، كأني أهاجمها، في البداية، خلخلت الريح أسقف بيوت الطين المبنية عند سفح جبل القلعة، أما الأسقف الخشبية المشدودة بالحبال المتينة والملبسة بالطين والشيد معاً، فقد صمدت إلا من رلف طفيف هنا وهناك.." (٢).

أما في روايتها الأخرى "شجرة الفهود ... تقاسيم العشق" نرى أن الرواية تحدثت عن المعارك التي كانت تدور بين الجيش الأردني والجيش الإسرائيلي، فيدب الرعب داخل البيوت ويستعدوا نفسياً لمواجهة الحدث، فتبقى النساء والأطفال، ويخرج الرجال

---

(١) سميحة خريس : دفاتر الطوفان، ص ٢٤١-٢٤٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٧٦.

للمواجهة، ومثال ذلك ما جاء في إربد من استعدادات كالتالي : في حرب حزيران ١٩٦٧م في الطريق إلى إربد شاهدنا جموعاً من العسكر، وتحدثت أمي عن والدها الشهيد ونحن نستمع وكأن على رؤوسنا الطير ... صوتها والجند العابرون ... ونشيد المدرسة والشجر يمرق مسرعاً أمام نافذة السيارة وشوبة حزيران ...قلبي يخفق مثلما الطير ... عندما عبرت وحدة فتانا محمد نهر الشريعة كان ردار عجلون يسجل معلومات عن تكثيف للنشاط الجوي ... قلقنا وتبادلنا المعلومات بحماسة إلا أننا كنا نظن الأمر مناورة ... أوهاماً ... عند الفجر جاءتنا الحرب بكل ثقلها ... أول أبجديات الحرب ذلك السخام النيلي الأسود الذي يفسدون به بهاء الشبابيك الزجاجية، إربد بلا عيون، لا شبابيك، كلها ملطخة بالنيلة، أهذا الحجاب يحمينا من الهجوم الإسرائيلي؟"[1]، وتذكر الروائية أحداث معركة الكرامة عند الانتصار : "الجيش عند رابعة محمد بن منذور ... وانتصر الجيش ... انتصرنا ... وارتدت الحرارة إلى أطرافي الباردة المتيبسة، لم يحتلني غريب ... أطل ماجد وأحمد في المساء، واندفع ماجد نحوي، حملني على كتفه وراح يرقص بي والفهود يضحكون، في المعركة التي سموها معركة الكرامة، رقصت محمولة في فضاء الهضبة على كتف ماجد وأمي.."[2].

أما هاشم غرايبة في روايته "الشهبندر" يذكر لنا بعضاً من الملامح التاريخية لمدينة عمّان، وذلك على النحو التالي : "لنا أن نتخيل العمونيين والمؤابيين والجلعاديين والآدميين والكنعانيين وهم يهرعون إلى فيلادلفيا- التي أعاد بناءها القائد اليوناني بطليموس الثاني فيلادلفيوس، ومنحها اسمه – للتعرف على معالم الحياة الجديدة التي حملها لهم الرومان، فنراهم يعتمرون عمائم من اللباد الأبيض، ويلبسون ثياباً رمادية أو بنية تحملنا بعيداً عن الوقار الكهنوتي لسادة القلعة بثيابهم البيض الناصعة، وجلابيبهم السود الداكنة، ذات القلانس الحمر النارية كما الشمس"[3].

---

(١) سميحة خريس : شجرة الفهود ... تقاسيم العشق، ص ٤١.

(٢) المصدر السابق، ص ٥١.

(٣) هاشم غرايبة : الشهبندر، ص ٤٩.

أيضاً ما جاء كالتالي في الأصول التاريخية لمدينة عمَّان : "كانت فيلادلفيا مدينة نصف رومانية، توصف للمسافر على أنها تقع على حدود الصحراء، ومن الحق أن نقول إنها لم تكن في يوم من الأيام مدينة رومانية خالصة، فقد استمرت صبغتها المحلية نابضة على مدى الأجيال، هذه المدينة الجبلية الضائعة في مسافات زمنية لا تقاس إلا بمقدار ما ترك عليها الغزاة والتجار من بصمات؛ كانت تتكتل حولها قوى البلاد الروحية لزمن فيتجلى بهائها ويغزر عطائها، ثم لا تلبث دفعة واحدة أن تصير فريسة لتقلصات اقتصادية وسكانية تأخذها بعيداً إلى عالم النسيان، في إطار جدلية الخفاء والتجلي التاريخية التي يتقنها سيلها الحالم"(١).

ففي إحدى الصفحات يذكر لنا الراوي مدينة عمَّان بأنها ملجأ الأمان والاستقرار، فلذلك جاء إليها أناس من الشرق والغرب ليقيموا بها كالتالي : "إن المدينة التي أخذت أهميتها من كونها ملتقى القوافل، لم تكن بجاذبية الإسكندرية أو إنطاكية أو قرطاج... لكن أهميتها تأتي من كونها تحمي سكاناً من مختلف الأجناس أتوا من الغرب ومن الشرق، وتتصادم أكتافهم وكأنهم في مفترق طرق كثيف المرور ... ويقضون أوقات فراغهم بالاستماع إلى متحدثين مهرة، ويندمجون في دوامات الأفكار والكلمات..." (٢).

ب-الأبعاد الاجتماعية لعمَّان :

بعد استقرار الشركس في مدينة عمَّان، عملوا على استصلاح الأراضي التي منحها لهم السلطان العثماني، بإشراف الأمير لاي ميرزا وصفي باشا، والتي وزعت عليهم بواقع ٦٠-٨٠ دونم للعائلة الواحدة، ونظراً لذلك كان لابد للشركس من إقامة علاقات مع البدو الساكنين حول عمَّان وإيجاد نوع من الأمن والاستقرار ليسهل عليهم زراعة أراضيهم، لأنهم زرعوا أرضاً كان البدو يدَّعون ملكيتها قبل امتلاك الشركس لها؛ إذ كانت أراضي منطقة عمَّان حتى السيل قبل قدوم الشركس ملكاً لبعض

(١) هاشم غرايبة : الشهبندر، ص ١٥٠.
(٢) المصدر السابق، ص ٥١.

العائلات السلطية والبلقاوية، ولعدم وجود مستندات معهم لخوفهم من دفع الضرائب للدولة العثمانية، فقدوا أحقيتهم لها وقامت الدولة بتوزيع تلك الأراضي على الشركس —ويدل ذلك على الجهل وعدم الوعي بضرورة وجود قواشين (مستندات) لدى تلك القبائل تثبت حقوقهم لتلك الأراضي، وبالتالي خسروا ما كانوا يعتقدونه ملكاً لهم[1].

وفيما بعد ازدادت المناوشات بين الشركس والبدو في موسمي الحصاد والبيادر خاصة خلال الفترة الأولى لاستقرار الشركس في عمّان، إذ حصل اشتباك بين الشركس وبعض عشائر البلقاء، نتج عنه عدد من القتلى والجرحى من الطرفين، ويعود سبب الخلاف إلى أنّ شيخ بني صخر أرسل للشركس رسالة يطلب منهم مغادرة المنطقة، فوافق الشركس بشرط إرسال جمال من أجل نقلهم، فاعتقد البدو أنها حيلة من الشركس للاستيلاء على جمالهم، ولكن هذا الخلاف لم يستمر طويلاً إذ حلّ التفاهم بين الطرفين، وأقام بنو صخر للشركس طعاماً للغداء في رأس العين، ومن ذلك الوقت تعرف الشركس خلال تلك المناسبة على المنسف الأردني، وبدأت علاقات الطرفين بالتحسن[2].

ولم تقتصر أسباب الخلاف بين الشركس والعرب على الأرض، وإنما تمثلت باختلاف العادات والتقاليد بين الطرفين، واختلاف الملابس والشكل، كما عانى الطرفان من مشكلة اللغة، فإن عدم معرفة الشركس باللغة العربية، حالت بداية دون التفاهم وإقامة التعاون بينهم، ولكن مع مرور الوقت — ونتيجة للاحتكاك بين الطرفين — تمكن الشركس من إتقان اللغة العربية[3].

كما استغل بعض العرب بعض القيم والتقاليد الشركسية، منها عادة الخطف عند الشركس، إذ حاول أحد أبناء القبائل البلقاوية، خطف فتاة شركسية من رأس العين

---

(١) حنان ملكاوي : مدينة عمّان (١٩٢١-١٩٤٧)، ص ٧٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٧٧-٧٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ٧٨.

سنة ١٩٠٠م، فاستعان الشركس بحلفائهم بني صخر، وحدثت بين الطرفين معركة انتهت بفوز الشركس، واستقرار الأمن في عمَّان، مما شجع بعض التجار من دمشق ونابلس للقدوم إليها، ويوضح ذلك أثر العادات والتقاليد الشركسية في مجتمع المدينة، كما ساهمت المضافات الشركسية والعربية في إقامة علاقات اجتماعية بين الطرفين لكونها ملتقى ثقافياً واجتماعياً لسكان المدينة.

وكان الشركس من المؤيدين للأمير عبدالله عندما قام بتأسيس الإمارة سنة ١٩٢١م، وكان لهم دور في الإدارة، فبلغت نسبتهم ٧,٣% من عدد الموظفين غير الإنجليز، وأعطي قانون الانتخاب الأردني مقعداً تشريعياً لكل ٥٠٠٠ شركسي، وبذلك عامل القانون الشركس كمواطنين أردنيين لهم الحقوق نفسها، ولم يعاملهم كأقليات.

ومما سبق نلاحظ أن الشركس استقروا في عمَّان كمجتمع منظم منذ أواخر القرن التاسع عشر؛ فأصبحت عمَّان باستقرارهم مركز جذب للسكان من البلاد العربية المجاورة، مما أسهم في نمو المدينة.

وعمل الشركس كونهم أقلية – على عدم الاندماج كلياً في مجتمع المدينة؛ إذ حافظوا على عاداتهم وتقاليدهم ولغتهم وتجمعوا في مناطق جغرافية خاصة بهم[1].

فكان للهجرات المتتالية التي شهدتها المدينة أثر في زيادة عدد السكان وتنوع عناصر المجتمع ومكوناته الاجتماعية، وامتزاج ثقافي واجتماعي بين أفراده، فعلى الرغم من وجود تفاوت اقتصادي بين أفراده إلا أنه لم تظهر فجوة كبيرة بين الأغنياء والفقراء، فالجميع يأكلون ويلبسون نفس الشيء، مما أضفى على حياة السكان البساطة، والتي انعكست مظاهرها على التعامل بين الأفراد وعلى أنماط المعيشة والعمران كذلك.

(١) حنان ملكاوي : مدينة عمَّان (١٩٢١م-١٩٤٧م)، ص ٧٩.

فساهمت الهجرات الداخلية والخارجية لعاصمة الإمارة في إحداث تنوع اجتماعي، وجغرافي، وثقافي، واقتصادي، وسياسي داخل مجتمع المدينة عمّان، وهذا أدى إلى غنى الحياة الاجتماعية في المدينة، التي قامت على أساس المصالح المتبادلة[1].

ومما سبق نلاحظ اهتمام الروائيين بذكر تفاصيل الحياة الاجتماعية بشكل عام في الرواية، وبشكل خاص في مدينة عمّان، فقاموا بسرد الأحداث للحياة الاجتماعية، فأبرزوا العلاقة الوطيدة بين سكانها في عدة نواحي في الرواية الأردنية.

ففي رواية "*مخلفات الزوابع الأخيرة*" نلاحظ بروز العادات والتقاليد بشكل واضح عند الغجر، وذلك من خلال كثرة أعراسهم واحتفالاتهم فجاء بها الراوي على النحو التالي : "*ما أكثر أعراس الغجر ! ما أكثر مناسباتهم ! الخطوبة مناسبة، الزواج، الولادة، الختان، الحصول على عمل، الشفاء من مرض ... كثيرة هي المناسبات التي يختلقها الغجر من أجل إقامة أعراسهم، لكن أجمل تلك الأعراس، هي التي بلا سبب ! بلا مناسبة ! 'هكذا خلقنا ربنا' يقولون، ويتساءل 'الفلاحون' عما إذا كان ثمة مناسبة، فيجيب واحد من أصحاب العرس، وهو يضع سبابته على قرن جبهته 'إذا تعبأ المخ فلت اللسان، وإذا فلت اللسان، فلتت الأصابع على الطبل، وإذا فلتت الأصابع، انهز الرأس والوسط وكل البدن، وهات يا عرقي من صوتك' ويكمل 'كيف؟ لا تسألوني، لكن إذا تعبأ المخ فلتت الدنيا !' ثم يتابع الرقص والهز بنشوة حصان يركض في صباح البراري*"[2].

ويكمل الراوي ما يجري في أعراسهم على النحو التالي : "*أعراس الغجر تنتهي بمشكلة ! يطبلون، يغنون، يرقصون، ثم يتناهدون ويتقاتلون! كأنما القتال جزء من تقاليد أعراسهم ولوازمهم التي لا حصر لها ! أحياناً يمتد القتال ليشمل كل غجر الوادي، فيشتبكون*

(١) حنان ملكاوي : مدينة عمّان (١٩٢١م-١٩٤٧م)، ص ٨٠.

(٢) جمال ناجي : مخلفات الزوابع الأخيرة، ص ١٣٠.

بالأيدي والعصي والأدوات المعدنية والزجاج والحجارة لماذا يتقاتلون؟ يتساءل الفلاحون بشيء من التعجب.." (١).

ومن عاداتهم أيضاً ما جاء كالتالي : "يسخن الغجر بسرعة، ويبردون بسرعة أيضاً ! ففي لحظة خارجة عن نطاق الوقت والمكان يضحكون ! فتحمر جباههم ووجناتهم الكهباء مفصحة عن الخجل الذي يستدعيه تذكرهم لشتائمهم، وفلتات ألسنتهم خلال العراك، ويذهبون إلى بيوت بعضهم، يتصالحون ويتعاتبون، يدخنون السجائر يشربون الشاي بالبابونج، يتبادلون أشرطة المسجلات، ويستدينون النقود من بعضهم، كثيراً ما يميلون على بعضـــــهم.."(٢)، هكذا هي عادات الغجر، وهكذا جاءت منذ أن خلقوا.

أما في رواية "أبناء القلعة"، فقد جاء الراوي ببعض العادات السائدة، فقام بذكرها، وتمثل ذلك في أيام رمضان المبارك وأيام العيد، عندما أصبحت فوزية بنت شمس الدين تقيم إدارة شؤون العائلة المركبة، بعد وفاة والدها، غدت مسؤولة عن أخيها الصغير فخري، وعند حلول نكبة ١٩٤٨م، استقر ابني أختها نايف وفارس في كنفها، إضافة إلى جملة من العقارات الموروثة ... فنشأت هذه العائلة بمثابة راعٍ شعبي ورمزاً من رموزه، ولا أدلّ على ذلك من هذا المظهر الرمضاني الكاشف عن برجوازيتها، حيث تفتح موائدها الرمضانية لكل محتاج، "في منزل شمس الدين، تتعامل فوزية مع هذا الشهر كما اعتادت عليه منذ حياة أبيها، تبدأ منذ اليوم الأول في دعوة جيرانها لمشاركتها الإفطار، وتلبي دعوتهم أيضاً، الجمعة الأولى من الشهر، تخصصها فوزية للمحتاجين، ولكل معوز وعابر سبيل ... كثير من المحتاجين والمعوزين يعرفون هذه العادة، وينتظرون هذه الوليمة وهذا الموقف يكشف عن برجوازية إيجابية تنتهجها هذه العائلة في الحي، فالقادر هو من يستطيع تقديم يد العون إلى المعوزين"(٣).

---

(١) جمال ناجي : مخلفات الزوابع الأخيرة، ص ١٣٠-١٣١.

(٢) المصدر السابق، ص ١٣٤-١٣٥.

(٣) زياد قاسم : أبناء القلعة، ص ١٦٢.

أيضاً ما جاء كالتالي في زيارة القبور أول أيام العيد، على النحو التالي : "في الصباح الباكر، وقبل أن يستقر الضوء، وتختفي العتمة، اتجهت عائلة شمس الدين، وعائلة الأستاذ منصور إلى المقبرة، للأموات أيضاً حصة في العيد، وحق في التهنئة، ذكراهم ما زالت تحيا بألم ومرارة... زاروا قبور موتاهم، شمس الدين وابنته، بيرجس ورفاقه، صبوا الماء على القبر حتى يحس الميت بدموعهم تبلل التراب، وضعوا الزهور دعاء بالجنة، ثبتوا سعف النخيل إيماناً بالخلود، قرئوا في القرآن معنى الموت والحياة، تحشرج البكاء مكتوماً في صدورهم، ووزعوا نيابة عن أمواتهم عيدية العيد على من يمتهنون الشحاذة في القبور..."[1].

أما رواية جمعة القفاري، فقد خلت من ذكر العادات الاجتماعية إلا في عدة مواقف، فلم تكن مباشرة وربما يعود السبب إلى أنّ جمعة كان منطوياً على نفسه، و لم يترك لنفسه فرصة في الاحتكاك بالمجتمع والواقع المعاش، أما ما جاء ذكره كان كالتالي :"وكنا جميعاً نعرف أن هذه دخلة هاشم، واندفعت روائح الفلافل والحمص والفول إلى أنفي، واشتهيت كوباً من الشاي مع صحن فول ورأس بصل، وكانت عيناي تبحث عن رأس العملاق البغل... ولحستنا عيون الزبائن الذين كانت قطع الخبز في أيديهم تلحس صحون الحمص والفول، ولاحظت أن عيونهم تومض ببريق عجيب، وكان قلبي يخفق بشدة، والشوارع تنبض تحت عجلات السيارات، وأقدام المارة..."[2].

ففي هذا المقطع يبين لنا الراوي مظاهر الحياة العامة في الأسواق، والشوارع المزدحمة بالناس والسيارات. أما رواية "شجرة الفهود ... تقاسيم العشق" تذكر لنا الروائية بعضاً من الملامح الاجتماعية في الالتزام بالعادات والتقاليد في عمّان، وذلك على النحو التالي : "أنا لا !! لا يسمح لي بالخروج، فأمي تتعلم جيداً من دروس الحياة، ضربتين بالرأس بتوجع ... وأن الضربة الثانية المحتملة، رباب كانت الأولى، وأنا الضحية، لا

(١) زياد قاسم : أبناء القلعة، ص ١٦٤.
(٢) مؤنس الرزاز : جمعة القفاري، ص ٢٠٠.

خروج إلى الحاكورة إلا برقابة صارمة، ممنوع إدخال أولاد الجيران إلى عقر دارنا، بعبع حقيقي أولاد الجيران!! ممنوع التشكي من مناهج المدرسة وإبداء أية ملاحظات حول دروس إضافية أو خصوصية ... لم يدخل بيتنا أستاذ لأسارقه النظرات، ولم ألعب مع ولد !"[1].

ففي مدينة عمّان تغيرت أشياء كثيرة في الحياة الاجتماعية، فتركت العادات الاجتماعية في إربد للماضي، ولكن في عمّان تغير الوضع كالتالي : "علمتني عمّان كيف أجلس إلى المائدة بأناقة، وكيف أقطع لقمتي بالسكين وأتناولها بالشوكة، اغتالت هذه المدينة عباراتي "الشمالية"، أتفادى أن أتفوّه بكلمة الفطور فأمد ألفاً بعد الفاء، ذلك يجعل البنات ينظرن نحوي ساخرات ... أرقق الكلمات، فلا أقول لسلام "الله يقطعك" مضخمة القاف ولكن أحولها إلى همزة عبارة ... أتغنج لساني في عمّان، خلعت البنطلون من تحت مريول المدرسة، كم كان لازماً هذا البنطلون"[2].

وفي موطن آخر تذكر الكاتبة عادة قراءة الفاتحة مع وجود الجاهة عند الخطبة كالتالي : "ذهب الفهود والرشايدة إلى الجاهة مترددين متزعجين، لكنهم شربوا قهوة سعيد الصخور وقرأوا الفاتحة إيذاناً بزفاف جديد..."[3].

أيضاً ما جاء كالتالي عندما تحدثت الكاتبة عن مظاهر الأعراس في الاستعدادات، وإقامة الولائم : "ووقف الجميع يزوجون محمداً، ذبحوا النعاج، وأقاموا الولائم، وكانوا جوّادين في تغطية النفقات المالية ... رشوا العروسين بالملبس الملوّن، وتهالكنا نحن الصغار لجمعة، خاصة أنه اختلط بالقروش والتعاريف، جمعت الكثير من الملبس الأزرق والوردي وتركت الأبيض والقروش لفهيد، فكفاي لا تكادان تتسعان..."[4].

---

(١) سميحة خريس : شجرة الفهود ... تقاسيم العشق، ص ٩٤.

(٢) المصدر السابق، ص ١٠٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٤٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ٥٢.

أيضاً تحدثت الروائية عن عمّان في اختلاف اللباس، وذلك عند رحيل العائلة إلى عمّان، تقول فريدة : "تفجعنا السيقان والأذرع العارية في عمّان بعد اعتياد البنطلونات التي تستر اللحم تحت الفساتين في إربد"(١).

أما روايتها الأخرى "دفاتر الطوفان" تذكر الروائية بعضاً من العادات السائدة في صنع الأطعمة كالزيتون، في طريقة إعداده كالتالي : "تكبس أسمهان الزيتون بحيث تظل الحبة مكتنـــزة وقوية ولامعة دون أن تشطبها بالسكين أو تدقها بالحجر، لكن زيتون حسيبة سيكبس بالملح والليمون، ولن تنسى قرن الشطة الذي يمنح الطعم حرارة محببة ... تكبس نجمة الزيتون في زيته، وتفضل الأسود الممتلئ ولا تخلو لها مائدة خالية منه..." (٢).

ومن العادات أيضاً الزيارات المتبادلة كما ذكرتها سميحة خريس في روايتها كالتالي : "هذا موعد استقبال أمه لنساء عمّان، يثرثرن ويأكلن السحلب والمكسرات والتفاح والخيار البدوي، لم يسترع انتباهه أن أمه خلعت الثوب البدوي وارتدت فستاناً مدنياً، وأنها تحب الأحذية أكثر من نفسها..." (٣).

أيضاً ما يمثل العادات والتقاليد، مشاركة الآخرين في عزائهم كالتالي : "يستعد الرجال للذهاب إلى السلط والمشاركة في جنازة كل من علي العبويني وعبدالرحمن النجداوي اللذين جيء بجثمانيهما من أرض المعركة.."(٤).

وفي رواية "الشهبندر" نلاحظ ذكر واضح للحياة الاجتماعية في عمّان، حيث يتحدث الراوي عن اختلاف اللباس من منطقة إلى أخرى، وذلك يتبين من خلال عرض الملابس في الأسواق كالتالي : "كأنما الناس في عرس دائم ! ضجيج وصخب، أزياء الشرق وأزياء الغرب تختلط ، طرابيش وشماخات، قلبق شركسي، وفيصلية عراقية، عمامة

(١) سميحة خريس : شجرة الفهود ... تقاسيم العشق، ص ٩٣.

(٢) سميحة خريس " دفاتر الطوفان، ص ١٣١.

(٣) المصدر السابق، ص ١٥٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٣٢.

عربية، وبرنيطة غربية، عباءات ودوامر، وبدلات داكنة بصداري زاهية ... الترواك الشامي للنساء إلى جانب الأثواب البلدية المطرزّة، والحطات المقصبة، البريمة، والمدرقة، والملفع، والأحذية الواطئة للبدويات والفلاحات، البرنس المغربي، والفرمليات المصرية، والعمامة الشفافة للمدنيات، والأحذية نصف كعب للنساء في عمر الأربعين، كل هذا مختلط مع النساء ذوات الكعب العالي المتمايلات بالبوشيات التركية، وأثواب التفتا الهندي، والبازان الوارد من اليابـــــان.."[1].

أيضاً ما جاء من عادات ما زالت مستمرة إلى هذه الأيام تبادل الأطعمة في رمضان المبارك في عمّان :"أحب نفسي في عمّان، إذ ينتشر الناس في الأسواق نهاراً، وقبل أذان المغرب تتبادل البيوت صحون الطعام الساخنة، وأباريق الخشاف الباردة بود وكرم، وفي الليل تصير أدراج اللويبدة وجبل عمّان والأشرفية والقلعة والطهطور والجوفة والنصر ملتقى الجارات بين أشجار الصنوبر، برعاية عبق شجيرات الياسمين، وحضور كؤوس العصائر، وصواني القطايف ... ويخرج الرجال إلى المقاهي، ويسرح الأطفال في الساحات فرحاً بقدومي، وتصير عمّان في مهرجان يجمع البخاري على المغربي والشركسي على السوداني..."[2].

ومن العادات الاجتماعية زيارة القبور، فجاءت في الرواية على الشكل التالي : "يوم العيد كرسه أبي لصلة الرحم فزرنا قبور أجدادي في (المجنّة) القديمة شرق طريق المحطة، وزرنا ثلاثاً من عماتي : واحدة في السلط والثانية في اليادودة، والثالثة في ماركا..." [3]، هكذا جاءت العادات في التواصل مع صلة الأرحام أيضاً، والتي ما زالت مستمرة إلى أيامنا هذه في مدينة عمّان.

---

(١) هاشم غرايبة : الشهبندر، ص ١٦١.

(٢) المصدر السابق، ص ١٧٥.

(٣) المصدر نفسه، ص .

ج-الأبعاد الجمالية لعمّان :

إن كلمة الجمال مأخوذة من الكلمة اليونانية القديمة *(Aestheticos)* التي تغني تمثيل أو إدراك الشعور الحسي المبهج، والحكم عليه بأنه جميل.

فالإحساس بالجمال يدفع كل النفس الإنسانية بمشاعرها ورغباتها وفكرها نحو الموضوع الجميل، أو نحو الموضوع الذي حكمت على جماله من أجل تمثله، والتوحد معه، من أجل البهجة والسعادة التي يتضمنها الحصول على كل جميل.

فالجمال يثير فينا إحساساً بالانتظام والتناغم والكمال، وقد يكون ذلك في مشهد من مشاهد الطبيعة، أو في أثر فني من صنع الإنسان، فهو إحساس داخلي يتولد فينا عند رؤية أثر تتلاقى فيه عناصر متعددة ومتنوعة ومختلفة باختلاف الأذواق، ومعرفة الجمال ليست خاضعة للعقل ومعاييره، بل هي اكتناه انفعالي، وقد يتوصل التحليل إلى إدراك العناصر التي تؤلف في نظرنا الجمال في أحد الآثار، ولكننا نظل عاجزين عن فهم الصلة الخفية بين هذه العناصر، أي العامل الذي يولد الإحساس بالجمال[١].

لذلك تميزت عمّان بجمالها البهي، ورقيها الحضاري، فكانت وما زالت من العواصم المزدهرة، بما تتضمنه من عمران حضاري، وأماكن تزدحم بالناس كالأسواق والحمامات، فانعكس جمالها على أهلها وشعبها المتحضر، فاشتهرت مدينة عمّان بأسواقها المختلفة كالتالي :

١- سوق السكر : يقع هذا السوق في مكانه الحالي شمالي الجامع الحسيني الكبير، وقد سمي بذلك نسبة إلى صاحب السوق يوسف السكر.

٢- سوق الخضار: وكان يقع بمحاذاة سوق السكر وأنشأ مع إنشائه[٢].

٣- سوق الحلال وتقاليد التجارة فيه : أقيم هذا السوق في برهة تأسيس الإمارة في منطقة جسر الحمام الحالي، وكان الخميس أكثر أيام الأسبوع ازدحاماً فيه،

---

(١) محمد العضايلة : المكان الأردني : دراسة في الشعر الأردني المعاصر، ص ٧٤-٧٥.

(٢) عبدالله رشيد : ملامح الحياة الشعبية في مدينة عمّان (١٨٧٨-١٩٤٨م)، ص ٧٦-٧٧.

حيث يتساوق الناس ضمن ساحة ضيقة ومكشوفة، وقد كان البعض يطلقون على السوق (الموقف)، أما الوافدون من خارج المدينة فكان بعضهم يبكر في القدوم إلى السوق حتى إنهم كانوا ينامون فيه مع مواشيهم لمباشرة البيع في ساعات مبكرة من الصباح[1].

تميزت أيضاً مدينة عمّان بإنشاء الجسور التي أقيمت فوق السيل، واستخدمت كممرات للمشاة وهذه الجسور هي :

١- جسر المهاجرين ٢- جسر حي الخلايلة.

٣- جسر البلبيسي. ٤- جسر الحمام.

وعند تحول عمّان إلى عاصمة سياسية منذ أن أسست، تطلب الأمر وجود فنادق تأوي النزلاء ومطاعم تفي بمتطلباتهم مأكلاً ومشرباً، لذلك نشأت بعض الفنادق البسيطة في وسط المدينة، وكان البعض يطلق عليها اسم الخانات حسب التسمية التركية أو الأوتيلات حسب التسمية الإنجليزية، ومن هذه الفنادق مثلاً : فندق الكمال في سوق السكر، وفندق التوفيق وفندق فلسطين، ثم فندق السعادة مقابل الجامع الحسيني، وإلى الغرب منه فندق المنظر الجميل وغيرها من الفنادق البسيطة في وسط المدينة، أما فندق فيلادلفيا الذي أنشئ بالقرب من المدرج الروماني، فقد كانت له أهمية خاصة كفندق من الدرجة الأولى لاستضافة وإقامة الزوار الكبار والنفر القليل من السائحين.

أما المقاهي : فقد شكلت منعطفاً بارزاً للجانب الاجتماعي من حياة عمّان باستقطابها فئات كثيرة من المجتمع العمّاني من التجار والموظفين والعمال، ومن هذه المقاهي التي أدت دوراً بارزاً في الحركة الوطنية والثقافية لمدينة عمّان :

١- قهوة المنشية (التحتـــــة). ٢- قهوة المنشية (الفوقة).

٣- قهوة المحـــــروم. ٤- قهوة حمـــــدان.

---

(١) عبدالله رشيد : ملامح الحياة الشعبية في مدينة عمّان (١٨٧٨-١٩٤٨م)، ص ٧٧.

٥- قهوة البرازيـــــــــــــل.

أما دور السينما أنشئت لعرض الأفلام السينمائية العربية والأجنبية المختلفة، فكانت أول دار للسينما في عمّان هي سينما النصر، التي كان يطلق عليها سينما أبو صياح القباني، أما الدار الثانية فهي سينما البتراء، وأما السينما الثالثة فكانت سينما الإمارة في الأربعينيات(١).

ففي رواية "*مخلفات الزوابع الأخيرة*" تحدث الراوي عن جماليات المكان من خلال الوصف، فلم يكن ذكره محدداً لمدينة عمّان، بل لوادي الغجر والمدينة المجاورة، فكانت على النحو التالي : "**هكذا فجأة تغير الليل في الوادي، وتحول السكون إلى ضجيج وصفير وزعيـــــــــــق!..**" (٢).

أيضاً ما جاء كالتالي في ذكر المقهى كالتالي : "**في مقهى أبو بركة وجد شبان الوادي ورجاله متنفساً لهم ومكاناً يقضون فيه الساعات المعلقة التي غالباً ما تؤدي إلى ضيق أمهاتهم ونسائهم بهم...**" (٣).

أما في رواية : "*أبناء القلعة*" يأتي الراوي بذكر المقهى ليكون ملتقى الشباب: "في هذا المكان لا يتعب الزبائن في البحث عن حران، ولا يتعب هو في الوصول إليهم، وتقصي أخبارهم..." (٤).

كما يتحدث الراوي في موطن آخر عن الأجواء الرمضانية في عمّان، فيظهر جمال ذلك من خلال التالي : "**دوت أصوات المدافع من فوق جبل القلعة، معلنةً للحي والمدينة ثبوت شهر رمضان، أسرع الناس والبهجة تغمرهم يهنئون بعضهم ... في رمضان يصاب أهالي القلعة بحمى التدين، يمارسون طقوس الصيام ما استطاعوا، يوقظهم صوت المدفع قبل**

(١) عبدالله رشيد : ملامح الحياة الشعبية في مدينة عمّان (١٨٧٨-١٩٤٨م)، ص ٢٩١-٢٩٥.
(٢) جمال ناجي : مخلفات الزوابع الأخيرة، ص ٩٠.
(٣) المصدر السابق، ص ٦٢.
(٤) زياد قاسم : أبناء القلعة، ص ٦٩.

آذان الصباح ... يؤدون الصلاة في المسجد في مواعيدها، عند العصر يشتد الزحام والتهافت على الشراء، ثم تخلو الشوارع شيئاً فشيئاً من عابريها..."[1].

أيضاً ما جاء من صورة جمالية للمدينة أثناء وقوع المظاهرات كالتالي : "أفاقت المدينة في أواخر الربيع على تظاهرة لم تعهدها، ولا استعدت لها، الإعلانات تغطي جدران المحلات، الملصقات تتألف في الواجهات الزجاجية، اليافطات مرفوعة في مناطق العبور وعلى الجسور والشوارع، الحافلات تتزين بالصور والعبارات، وشاحنات ذات هيئة غريبة تحمل زجاجات غريبة في صناديق غريبة"[2].

وفي رواية "جمعة القفاري" جاء ذكر المكان / عمّان بصورة رائعة، ووصفها وصفاً راقياً، فهي مدينة الشعوب من الشرق والغرب، فوصفها مؤنس الرزاز بأنها مدينة "الرحم والملاذ[3].

ويأتي الراوي بذكر الفندق ليقيم جمعة فيه، فهو مترل المثقفين الأدباء هكذا قال الغلباوي لجمعة كالتالي : "أنت أديب يبحث عن مغامرة ... وأنا أقترح عليك أن تنزل في فندق في شارع الملك طلال...) [4].

أيضاً ما جاء كالتالي : "ليتك حدقت إلى عيني جمعة حين تناولنا عشاءاً مبكراً في مطعم هاشم، ثم مشينا في شارع الأمير محمد، وعدنا أدراجنا، فدعوته إلى حانة في دخلة سينما رغدان"[5].

---

(1) زياد قاسم : أبناء القلعة، ص ١٦١.

(2) المصدر السابق، ص ١٩٣.

(3) مؤنس الرزاز : جمعة القفاري، ص ٢٤.

(4) المصدر السابق، ص ١٨٦.

(5) المصدر نفسه، ص ١٨٧.

أما في روايته الأخرى "الشظايا والفسيفساء" فقد جاء ذكره للسينما عندما يذهب إليه كالتالي : "ما زلت أذكر فيلم 'دكتور زيفاغو' في سينما الخيام، كنا نطلق الصفير إذا شاهدنا بوصة من فخذ ممثلة، كنا نتصهون ونطلق القهقهة فتعدي 'مجمع السينما'"[١].

أيضاً ما جاء كالتالي، عندما تطوّر العمران الحضاري وغطى جبال عمّان كلها : "الجبال السبعة القديمة انتقلت إلى وسط عمّان، تراجعت المزارع واختفت الأشجار في بطن الأرض، وقامت مناطق جديدة أنيقة بلا بقالات ولا صبي بقال لا حارات، ولا عصابات من الصبية، الجبال تومئ نحو وسط البلد وخاصرتها، كأنها تقف على حافة لحظة التداعي، لكنها تميل وتتداعى، السماء هابطة محدودبة، الشوارع تتدفق مثل أنهار لا تنهار..."[٢].

ويذكر الراوي في موطن آخر أحد فنادق عمّان حيث اجتماع الشباب المثقفين، أولئك الذين ينتمون إلى الأحزاب كالتالي : "نجلس في فندق الكناري في شارع مدرسة 'الترا سنطة' في جبل اللويبدة قلت لعبدالكريم بلهجة تنم عن ذكر : أعتقد أن حبال أفكاري بدأت تتقطع.."[٣].

وفي رواية "شجرة الفهود ... تقاسيم العشق" نلاحظ الوصف الرائع لمدينة عمّان، فكما قلت سابقاً أن الروائية وعمّان تجمعهما علاقة حب أبدية، فنراها تصف مدينة عمّان عند قدوم الفجر كالتالي : "غيمات منفوشة تلعب في فضاء السماء الأزرق الرائق، موشحة باللون البرتقالي ... قلبها بنفسجي، جاءت بها ريح عاصفة مرت لساعات في ساحة المدينة ثم ولت ... وتركت خلفها الغيمات الملونات صاحبات تأملي ووحدتي ... عندما تنزلق عيناي عن أعتابهن إلى حدود الأفق تستلبني زرقة السماء ... زرقاء روحي أيضاً، أيهما امتداد للآخر ... مرج الأزرقان يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان ... ربما أنا والكون واحد ... روحي ...وروحه !!! أحط الرحال وأنيخ إبلي ... سأصلي هذا المساء وأمجد الرب الذي بعث

---

(١) مؤنس الرزاز : الأعمال الكاملة، ص ٥٥٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٧٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ٦٢٨.

نوره في قلبي ... هكذا دون مقدمات اكتشف روعة الفجر، عندما أصحو فجأة وكأن صوتاً يناديني...."[1].

وتذكر الراوية في موطن آخر دار السينما عندما كانت فريدة تذهب مع صديقاتها كالتالي : "يعرف أنني أرافق الزميلات ساماً إلى السينما فيدعونني ... أكره الجلوس في عتمة الصالة مع الزميلات لأراقب حياة وهمية، في حين أن الحياة تجري خارج صالة العرض، فما بالك بالذهاب معه؟.؟..."[2].

وفي موطن آخر نلاحظ قوة العلاقة الجمالية بين الروائية وعمَّان كالتالي : "عمَّان مشتعلة، يا لهذا البهاء يا حلوة المدن وست الدنيا وحكاية الحجر، كم أحتاج إلى رؤيته تماماً كما هي الرغبة القديمة التي تسري في دمي فتشيع النشوة، الوقت مبكر وعمَّان تنبض بالحياة، السيارات تتدفق تعتلي الجسور أو تندس في أنفاقها المضيئة، بانوراما بهية من الهضاب والوديان والحجر الأبيض يبدو نظيفاً لامعاً، الحركة لا تتوقف في العاصمة التي أعشقها"[3].

وفي روايتها الأخرى "دفاتر الطوفان" نلاحظ وصفاً جمالياً لمدينة عمَّان وذلك كما جاء كالتالي :"هواء عمَّان الساحر لامس وجوههم الشابة، يصمتون دقائق منصتين إلى همس الفراغ وحلكة المساء، وأنا في قلب الدواة...."[4].

وتتحدث الروائية في موطن آخر عن الأمكنة التي تزين عمَّان كالتالي : "تدور الأحاديث في المقاهي والبيوت والمدارس عن التغيير الجديد، كل وزارة وعمَّان بخير ...."[5].

وتستمر الكاتبة في ذكر جماليات عمَّان كالتالي : "ماؤه عذب زلال ينهمر من موقعين، فيرى قادماً من وادي عبدون، ومن وادي السير، ليلتقي الفرعان في السيل الكبير في

---

(١) سميحة خريس : شجرة الفهود ... تقاسيم العشق، ص ١٢٢.

(٢) المصدر السابق، ص ١٧٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٥٠.

(٤) سميحة خريس : دفاتر الطوفان، ص ٥١.

(٥) المصدر السابق، ص ٢٢٠.

قلب عمّان، يلفيه البدو القادمون من نجد، يدخلون من ناعور محاذين السيل مسرحين دوابهم وإبلهم لترتوي في قلب عمّان"(١).

وفي موطن آخر تتحدث الكاتبة عن العمران والتقدم الحضاري في البناء كالتالي : "يرفعون البيوت بالحجارة، ثم يكحلون ما بين حجر وآخر بالأسمنت والصباغ الأسود، ويبدل العمّانيون دعامات أسقفهم الخشبية بخراسانات الإسمنت المسلح والحديد، كما يرصفون قاعات البيوت بالرخام المجلوب من الحلابات، وبالبلاط المبزر، حيث تتجاور الألوان وتتداخل، ويقلد البناؤن وعمال البلاط فناني الفسيفساء في العصور الغابرة، وكأنما ما تبقى من البيوت الطينية آيل إلى فناء..." (٢).

وتذكر الروائية في موطن آخر "حمام النصر" الذي تشتهر به مدينة عمّان كالتـــالي : "وللمدينة حمام يقال له "حمام النصر" أسوةً بالحمامات التركية التي عرفها القوم في بلاد الشام، وارتحلت مع العرب إلى أقصى المغرب... في حمام عمّان الوحيد وفي حجرة تحت سطح البناء تسخن المراجل الكبيرة المملوءة ماءً على الفحم حتى الغليان، وترتاد النساء الحمام عصراً، أما الرجال فموعدهم صباحاً"(٣).

أما في رواية "الشهبندر" نلاحظ اهتمام الراوي بذكر الأسواق على الأغلب في مدينة عمّان وذلك كالتالي : "ما أجمل عمّان ! كأنما الناس في عرس دائم ! ضجيج وصخب، أزياء الشرق وأزياء الغرب..." (٤)، هكذا هي أسواق مدينة عمّان، فما من شيء يطلبه أي شخص إلا ويجده في مدينة الأسواق المتحضرة، والتي تمتلئ بكل أزياء العالم العربي والغربي.

ويقوم الراوي أيضاً بذكر الأسواق في مدينة عمّان كالتالي : "سوق السكر (سوق كل شيء). سوق البخارية (للإكسسوارات وأدوات الزينة)، سوق وادي السرور (سوق اللذة

---

(١) سميحة خريس : دفاتر الطوفان، ص ٢٤٤.

(٢) المصدر السابق، ص٢٤٥.

(٣) سميحة خريس : دفاتر الطوفان، ص ٢٥٠.

(٤) هاشم غرايبة : الشهبندر، ص ١٦١.

المركزي)، سوق الخضار (للخضار والفواكه واللحوم)، سوق اليمنية (للأشياء المستعملة)، سوق الغلال (الحبوب والتبن وتوابعها)، سوق الحلال (للغنم والبقر والخيل والحمير)، سوق الصاغة (للذهب والفضة والخرز)، سوق السعادة (التجهيز العرسان)، سوف الأنتيكا (للخردوات)، وسوق البناء الحديث (إسمنت وحديد وخشب ومسامير)..." (١).

ويأتي الراوي في موقع آخر ذاكر أحد مقاهي مدينة عمّان، وهو مقهى حمدان الذي كان يستقطب رجال عمّان المثقفين كالتالي : "أنا مقهى حمدان شاهد تاريخ الأمة ... مثلما الباشا شيخ الأردنيين أينما اجتمعوا؛ أنا ملتقى الوطنيين والقوميين مهما اختلفوا ... هنا عقدوا مؤتمرهم الأول!" (٢).

---

(١) هاشم غرايبة : الشهبندر، ص ٢٨٠-٢٨١.

(٢) المصدر السابق، ص ٩٣.

الفصل الثالث

منظورات تشكيل المكان

١-المنظور السردي :

السرد أو القص هو فعل يقوم به الراوي الذي ينتج القصة، وهو فعل حقيقي أو خيالي ثمرته الخطاب، ويشمل السرد على سبيل التوسع، مجمل الظروف المكانية والزمنية، الواقعية والخيالية، التي تحيط به، فالسرد عملية إنتاج يمثل فيها الراوي دور المنتج، والمروي له دور المستهلك، والخطاب دور السلعة المنتجة[١].

فالبحث المنهجي في العمل السردي الروائي بغرض الكشف عن العناصر المكونة لهذه البنية اقتضى التمييز نظرياً، بين العمل السردي الروائي من حيث هو حكاية وبين من حيث هو قول (أو خطاب).

فهو حكاية بمعنى أنه يثير واقعة، أي حدثاً وقع، وأحداثاً وقعت، وبالتالي يفترض أشخاصاً يفعلون الأحداث ويختلطون، بصورهم المروية مع الحياة الواقعية، فمنطق أرسطو يقول أنّ الحكاية هي الفعل، والفعل هو ما يمارسه أشخاص بإقامة علاقات فيما بينهم ينسجونها وتنمو بهم، فتتشابك وتتعقد وفق منطق خاص بها[٢].

على أن المنطق الذي به تتشكل حركة نمو الفعل هو منطق بمفصل العمل الروائي، فيقيم بنيته محدداً لها نمطاً، وقيام البنية في نمطها يعني قيام الحكاية بقول (أو خطاب) أي بصياغة لا نرى الحكاية إلا بها، فيكون وصول الحكاية بواسطة الكتابة (لا بواسطة الشريط السينمائي، أو شريط الرسوم المتحركة مثلاً) من خلال راوٍ يروي الحكاية، بالإضافة إلى وجود قارئ يقرأ ما يرويه الراوي، فعند النظر إلى العمل الروائي من حيث هو حكاية، ومن حيث هو قول، لا يعني الفصل بينهما، إن الفصل بين الحكاية والقول هو فصل نقيمه فقط على المستوى النظري، ليعين الدراسة ويخولها التوضيح، لذلك لا تأتي الحكاية إلا من خلال القول الروائي، وهذا القول ليس سوى صياغة الحكاية[٣].

(١) لطيف زيتوني : معجم مصطلحات نقد الرواية، ص ١٠٥.

(٢) يمنى العيد : تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي، دار الفارابي، بيروت، ١٩٩٠، ط١، ص ٢٧.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٧-٢٨.

فالحكاية تتكون من مجموعة أحداث تقع، يقوم بها أشخاص ترتبط فيما بينهم علاقات، وتحفزهم حوافز تدفعهم إلى فعل ما يفعلون، وهذه الأحداث والأفعال ضمن السياق السردي الروائي تظهر في حيز أو فضاء أو مكان روائي من خلال تفاعل الأشخاص الذي يمثلون حركة الأحداث وتغيرها في الرواية، فأنواع السرد في العالم لا حصر لها، وهي قبل كل شيء تنوع كبير في الأجناس، وهي ذاتها تتوزع إلى مواد متباينة، كما لو أنّ كل مادة هي مادة صالحة لكي يضمنها الإنسان سروده، فالسرد يمكن أن تحتمله اللغة الشفوية كانت أم مكتوبة، والصورة ثابتة كانت أم متحركة" والإيماء مثلما يمكن أن يحتمله خليط منظم من كل هذه المواد، والسرد حاضر في الأسطورة وفي الحكاية الخرافية، وفي الحكاية على لسان الحيوانات، وفي الخرافة والأقصوصة، وفي الملحمة والتاريخ، وفي المأساة، والدراما، والملهاة، واللوحة المرسومة، وفي النقش على الزجاج، وفي السينما، والخبر الصحفي التافه، وفي المحادثة، وفضلاً عن ذلك فإن السرد بأشكاله اللانهائية تقريباً، حاضر في كل الأزمنة وفي كل الأمكنة، وفي كل المجتمعات؛ فهو يبدأ مع تاريخ البشرية ذاته؛ فلا يوجد أي شعب بدون سرد، فلكل الطبقات ولكل الجماعات البشرية سرودها، وهذه السرود تكون في غالب الأحيان مستساغة بشكل جماعي من قبل أناس ذوي ثقافات مختلفة إن لم تكن متعارضة : فالسرد لا يعير اهتماماً لا لجودة الأدب ولا لرداءاته، إنه عالمي، عبر تاريخي، عبر ثقافي، إنه موجود في كل مكان تماماً كالحياة[1].

أما المانح للسرد يكون إما شخصاً يبثه حيث يحمل اسماً يعينه إنه المؤلف، الذي تتبادل في ذاته بدون انقطاع، الشخصية، وفن السرد يمكن التعرف عليه بشكل واضح، كما أنه هو الذي يمسك القلم كل مرة ليكتب قصة، فالسرد في الرواية ما هو إلا تعبير عن "أنا" خارج عنه، وإما أن يجعل من السارد ضرباً من ضروب الوعي الكلي الذي

(١) رولان بارت : طرائق تحليل السرد الأدبي، ترجمة حسن بحراوي، بشير القمري، عبدالحميد عقار، الرباط، ١٩٩٠، ط١، ص ٩.

يبدو في الظاهر لا شخصياً، لكنه يبث القصة من وجهة نظر أعلى هي وجهة نظر الله – فالسارد هو في نفس الآن داخلي بالنسبة على شخصياته (لأنه يعلم كل ما يجري داخل أعماقها) وخارجي (لأنه لا يتماهى أبداً مع هذه الشخصية أو تلك). وإما أن يكون السارد في (تصور هنري جيمس وسارتر) ملزماً بأن يتوقف في سرده عند حدود ما تستطيع للشخصيات ملاحظته أو معرفته، فكل شيء يجري كما لو أن كل شخصية هي بالتناوب مرسلة للسرد[1].

فالمكان الروائي لا يطابق المكان الطبيعي تماماً بل يقاربه "*فالنص الروائي يخلق عن طريق الكلمات مكاناً خيالياً له مقوماته الخاصة وأبعاده المميزة*" بيد أنّ ذلك لا يعني عدم وجود تشابه بين هذين العالمين؛ لأن "*المكان هو الذي يعطي للمتخيل مظهر الحقيقة*"[2].

ونجد أنّ المكان الروائي مثله مثل المكونات الأخرى للسرد، لا يوجد إلا من خلال اللغة فهو مكان لفظي *Espace Verbal* بامتياز، ويختلف عن الأمكنة الخاصة بالسينما والمسرح أي عن كل الأماكن التي ندركها بالبصر أو السمع، إنه مكان لا يوجد إلا من خلال الكلمات المطبوعة في الكتاب، ولذلك فهو يتشكل كموضوع للفكر الذي يخلقه الروائي بجميع أجزائه ويحمله طابعاً مطابقاً لطبيعة الفنون الجميلة ولمبدأ المكان نفسه[3].

وتظهر ضرورة المكان بالنسبة للسرد ضرورة ملحة، ذلك أنّ السرد يبقى محتاجاً لكي ينمو ويتطور كعالم مغلق ومكتف بذاته، إلى عناصر زمانية ومكانية، فالحدث الروائي لا يقدَّم سوى مصحوب بجميع إحداثياته الزمانية والمكانية، ومن دون وجود هذه المعطيات يستحيل على السرد أن يؤدي رسالته الحكائية[4].

---

(١) رولان بارت : طرائق تحليل السرد الأدبي، ص ٢٧.

(٢) سلمان كاصد : عالم النص، دار الكندي، إربد، ط١، ٢٠٠٣، ص ١٢٧-١٢٨.

(٣) حسن بحراوي : بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٠، ط١، ص ٢٧.

(٤) المرجع السابق، ص ٢٨-٢٩.

فالرواية في أساسها قائمة على الحكاية، بالإضافة إلى الحدث، وهذا الحدث يتطلب بالضرورة زماناً ومكاناً، إلا أنّ المكان الروائي هو الذي يستقطب جماع اهتمام الكاتب، وذلك لأن تعيين المكان في الرواية هو البؤرة الضرورية التي تدعم الحكي وتنهض به في كل عمل تخيلي(١).

إن ظهور الشخصيات ونمو الأحداث التي تساهم فيها هو ما يساعد على تشكيل البناء المكاني في النص الروائي، فالمكان لا يتشكل إلا باختراق الأبطال له وليس هناك، بالنتيجة، أي مكان محدد مسبقاً، وإنما تتشكل الأمكنة من خلال الأحداث التي يقوم بها الأبطال، ومن المميزات التي تخصهم. وعلى هذا الأساس فإن بناء المكان الروائي يبدو مرتبطاً بخطية الأحداث السردية. وبالتالي يمكن القول بأنه هو المسار الذي يتبعه اتجاه السرد(٢).

فالمكان في الرواية، ليس مكاناً معتاداً كالذي نعيش فيه أو نخترقه يومياً، ولكنه يتشكل كعنصر من بين العناصر المكونة للحدث الروائي. وسواء جاء في صورة مشهد وصفي أو مجرد إطار للأحداث، فإنّ مهمته الأساسية هي التنظيم الدرامي للأحداث(٣).

"فالعلاقة بين السارد والمؤلف والقارئ تعتبر من ألطف العلاقات في تقنيات السرد وأشدها تداخلاً وأرقها ترابطاً، وأغورها عمقاً وأبعدها امتداداً، فكأنهم مهيئون لتبادل الأدوار والمواقع في أي لحظة من لحظات التشكيل السردي؛ وخصوصاً بين الأول والثاني من وجهة، والثاني والثالث من وجهة أخرى".

فالسارد قد يكون في وضع يبعده بعداً ساحقاً، عما يطلق عليه كثير من منظري الرواية الغربيين، طودوروف، جيرار جينات، واين بوث : "المؤلف الضمني". وأما هذا البعد في حد ذاته، فقد يكون معنوياً، وقد يكون فكرياً، كما قد يكون فيزيقياً أو

(١) حسن بحراوي : بنية الشكل الروائي، ص ٢٩.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٩.
(٣) المرجع نفسه، ص ٣٠.

زمنياً، حيث نلغي معظم المؤلفين بعداناً عن السارد؛ وما ذلك إلا لأنهم يعلمون كيف ستنتهي أحداث الرواية، كما يكون السارد قابلاً للابتعاد قليلاً أو كثيراً عن الشخصيات في الحكاية التي تحكي، وقد يكون السارد قابلاً للابتعاد، قليلاً أو كثيراً عن المعايير الشخصية للقارئ، وذلك إما ميتافيزيقياً وإما عاطفياً، كما قد يكون المؤلف الضمني قابلاً للابتعاد قليلاً أو كثيراً عن القارئ، وقد يكون هذا البعد فكرياً، وأخلاقياً، من حيث يكون المؤلف الضمني (والقارئ الضمني، أيضاً) قابلين للابتعاد عن الشخصيات الأخرى[1].

السرد، المسرود، السارد، المسرود له، السردانية، السرديات ... إنها شبكة من المصطلحات والمفاهيم المتداخلة المتمايزة، والمتقاربة المتباعدة، في الوقت ذاته.

حيث قام "كورتيس وغريماس" بتعريف "البرنامج السردي بأنه : "*نظام أولي للجملة المركبة السردية للسطح؛ وهو مشكل من مقول الفعل، وهو الذي يدبر أمر مقول الحال*". والبرنامج السردي لدى غريماس وكورتيس يتمثل في هذه المعادلة :

ب. س = و[(ف١ ← (ف٢ II م ق)]؛

ب. س = و[(ف١ ← (ف٢ ــــ م ق)]

أما جيرار جينات فقد قام بتعريف العمل السردي كالتالي : "*أنه عرض لحدث، أو سلسلة من الأحداث واقعية أو خيالية بواسطة اللغة؛ وبخاصة اللغة المكتوبة*"[2].

كما رأى بعض المحررين في الموسوعة العالمية أنّ العمل السردي يقتفي ميثاقاً تنشط بداخله أربعة مصطلحات : المؤلف، والقارئ، والشخصية، واللغة، وبمجرد أن ينقص عنصر واحد من الأربعة يختل النظام، وتتعدم الثقة؛ أي أن الميثاق يخرق وينقض[3].

---

(١) حسن بحراوي : بنية الشكل الروائي، ص ٣٠.

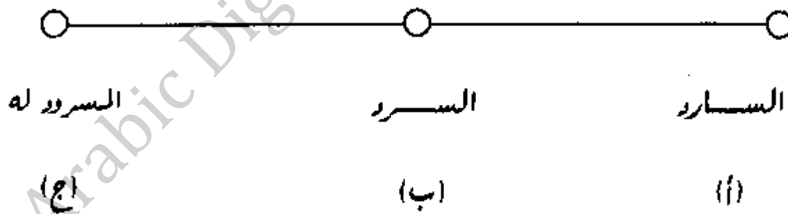
(٢) عبدالملك مرتاض : في نظرية الرواية في تقنيات السرد، عالم المعرفة، ١٩٩٨م، ط١، ص ٢٣٧-٢٤٨.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٥٣.

فالعمل السردي ينشأ عن فن السرد الذي هو إنجاز اللغة في شريط محكي يعالج أحداثاً خيالية في زمان معين، وحيز معين، تنهض بتمثيله شخصيات يصمم هندستها مؤلف أدبي.

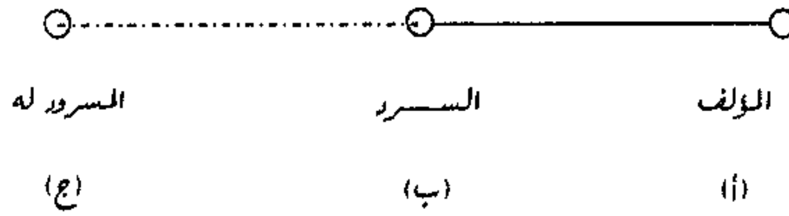
فالسرد هو بث الصوت والصورة بواسطة اللغة وتحويل ذلك إلى إنجاز سردي، إلى مقطوعة زمنية، ولوحة حيزية[1].

فالسرد والسارد والمسرود له أشياء ثابتة الوجود معاً، بالقياس إلى الأعمال السردية الشفوية؛ لأن السارد حين يسرد، يحكي، أساساً حكاية غيره (فهو هنا غير مؤلف ولا مبدع ... ولكنه راوية يحكي ما سمعه من راوية آخر...)؛ وهو بحكم أنه سارد يقدم حكاية، أو حكايات، فعمله هذا إذن سرد؛ هو بحكم الطبيعة الشفوية لا يمكن (أن يسرد في هواء، ولا أن يحكي في فراغ، ولكنه يسرد لمسرود له، أو لمسرود لهم، فالسرد هنا قائم على ثلاثة أطراف[2]".



أما السرد في الرواية، وفي أي عمل سردي مؤلف بعامة، فإنه يقوم في تمثلنا على[3]:

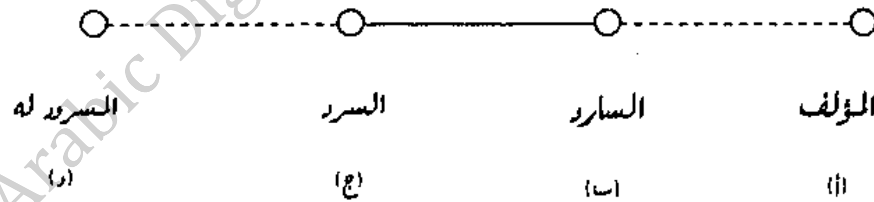
(١) عبدالملك مرتاض : في نظرية الرواية في تقنيات السرد، ص ٢٥٦.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٦٤-٢٦٥.
(٣) المرجع نفسه، ص ٢٦٥.



فالرسمة الثانية تقوم على الاتصال بين أ-ب، وعلى الانفصال بين ب-جـ؛ وذلك لأن العلاقة بينهما ليست مباشرة، فقد يجوز أن يكتب الروائي روايته ولا تنشر لأسباب مختلفة، إلا بعد زمن طويل، وإذا نشرت فإن القراء لا يتلقونها عنه، على كل حال، بصورة مباشرة.

ولكي يختلف الحال عند التوصيل السردي في الأعمال السردية الشفوية، حيث يظل الاتصال قائماً بين الأطراف الثلاثة (أ) و (ب) و (جـ).

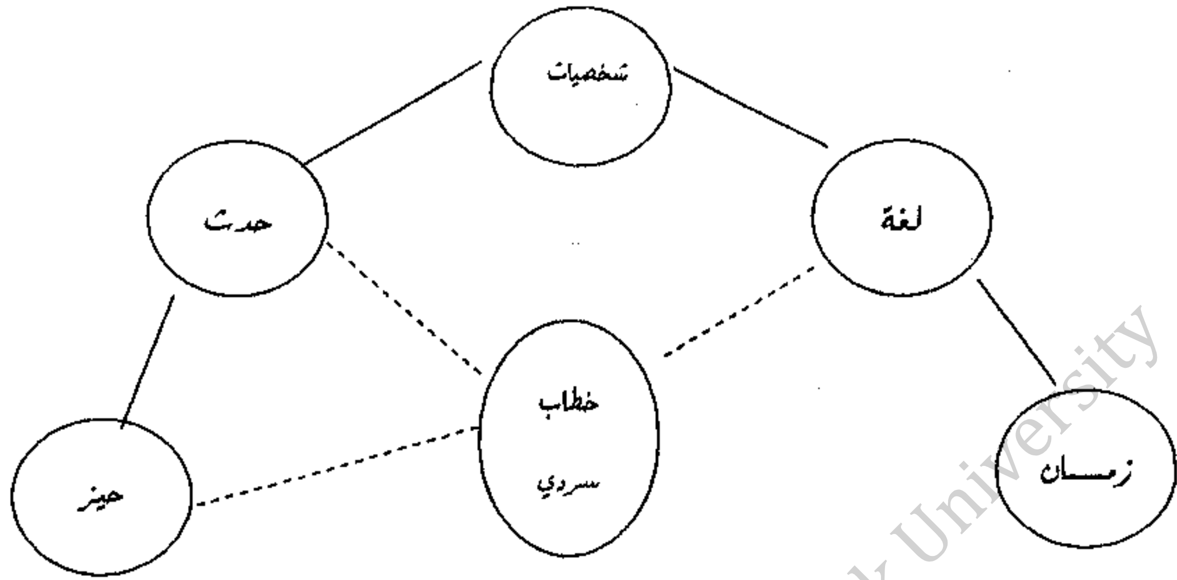
كذلك يمكن أن يقوم العمل السردي الشفوي، على نحو هذه الرسمة التالية .. [1].



فيغتدي الشكلان السرديان منفصلين في أولهما، ومتصلين في آخرهما. بالإضافة إلى ما سبق نجد أطرافاً تتشكل في النسيج السردي الذي تتضافر في تشكيله أطراف أخرى هي بمنزلة الأدوات التقنية، وهي اللغة، والشخصيات، والأحداث، والزمان، والحيز، وذلك كما هو مبين في الرسمة التالية[2] :

(١) عبدالملك مرتاض : في نظرية الرواية في تقنيات السرد، ص ٢٦٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٧٦.



فاعتبر عنصري الزمان والحيز (المكان) من المشكلات السردية التي تكون لحمة نسج الخطاب، وذلك على أساس أنّ الحدث لا يضطرب إلا في الحيز، فلا ينبغي لهذا الحيز أن يفلت من قبضة الأمان، غير أنه لابد من منح هذين العنصرين وضعاً خاصاً في المشكلات السردية؛ لأن الزمان أمسى الآن لعبة جميلة ودقيقة بحيث من العسير على النقد الروائي الحداثي أن يدمجا في الحدث ويستريح. وأما عن الحيز (المكان) فحدث ولا حرج، فإنه من الظلم لهذا الشكل السردي أن نذيبه، هو أيضاً، في الحدث ثم نعتقد، أثناء ذلك، أننا استطعنا تحليل النص الروائي، أو أننا أيضاً كتبناه حيث التعامل مع الحيز في أي كتابة روائية هو تقنية من تقنيات كتابة هذا الجنس الأدبي(1).

وعند الانتقال للحديث عن الجانب السردي في بناء المكان، نجد أن جمال ناجي اعتمد على الجانب السردي في روايته، وذلك في الوادي، وادي الغجر، ومثال ذلك ما جاء كالتالي : "*رقص الغجر وغنوا حتى الهزيع الأخير من الليل، وعندما كلوا، فرشوا طراحاتهم وبطانياتهم عند الصخرة المستوية، أمام الباب، ثم تناقشوا بصخب وطيش حول فكرة الاستقرار في الوادي!*" (2). فالمكان هنا يدل على الاستقرار والهدوء هذا قبل التبليغ

---

(1) عبدالملك مرتاض : في نظرية الرواية في تقنيات السرد، ص ٢٧٦-٢٧٧.

(2) جمال ناجي : مخلفات الزوابع الأخيرة، ص ٢٤.

وقبل أن تقتحم المدينة وادي الغجر، فجاء الراوي بسرد المكان بما يتضمنه من وقائع وأحداث في الوادي.

أيضاً ما جاء في سرد المكان كالتالي عند ذكر المقهى : "عند حافة الشارع الشرقي، وعلى ساحة الأرض تزيد عن الأمتار المئة المربعة، أقيمت مقهى أبو بركة ذات البابين الحراريين والواجهة الزجاجية المقابلة لشمس الصباح، وهناك، عند حافة الشارع الشرقي، بدأ التحول الكبير في حياة الوادي، وتنبه السكان إلى أهمية ذلك الموقع ..." (١).

وجاء السرد المكاني عندما أقبل الليل على الوادي قبل ظهور التبليغ، وذلك جاء كالتالي : "أعراس صاخبة، دكاكين مغلقة أو مفتوحة على جانبي الطريق، بقايا قشور وأوراق، أعمدة متقشرة، خيوط طائرة ورقية متشابكة بأسلاك الكهرباء، مصابيح مضاءة؛ أخرى مهشمة، مراهقة يتمشون في طريق القاع، يتحدثون عن الفتيات والأفلام والحب والمباريات، رجال يسهرون أمام البوابات، ... ونوافذ مضاءة لبيوت تسلقت جانبي الوادي، تعلوها جدران ونوافذ أخرى مضاءة أو مطفأة، ثم شبابيك أكثر ارتفاعاً وأقل اتساعاً، أو هكذا تبدو من القاع، ثم جدران، فنوافذ أكثر اقتراباً من السماء، ثم مقبرة عالية ملتحمة بالأفق الشمالي..." (٢).

أما رواية "أبناء القلعة" جاء السرد فيها للأمكنة كالتالي :"يضيق المجرى في المنطقة المتوسطة التي تقع قريباً من سوق المدينة، وعلى الجانب الأيمن لهذا الجزء يقع المدرج الروماني الذي حفره السكان الأوائل في جبل صخري على شكل نصف دائرة، تضيق من الأسفل وتتسع صعوداً في درجات حجرية، تتخللها أنفاق وأقبية وسراديب، سكنها على مر العصور أنواع من المستوطنين، مهاجرين وهاربين ومنفيين ... على الجانب الآخر للمجرى، وفي مواجهة المدرج الروماني مباشرة، يقع جبل شديد الانحدار، شقت في سفوحه ثلاثة شوارع تصل الوادي بالقمة. أقيمت على جانبها أبنية من الحجر وبيوت من الطين والقش، تحيط

---

(١) جمال ناجي : مخلفات الزوابع الأخيرة، ص ٦١-٦٢.

(٢) المصدر السابق، ص ١٦٥.

بها أشجار متفاوتة القامة والشكل، وبينها هنا وهناك خيام من الشادر وأكواخ من الصفيح الصدئ..." (١).

أيضاً ما جاء كالتالي : "على الرصيف، بجانب شجرة السنديان أخذت السلة تستذكر أحداث العصر، وعندما شاهدهم فارس من على شرفة المنزل أسرع ينزل إليهم..." (٢).

أيضاً جاء السرد المكاني في موقع آخر كالتالي : "في أقل من ثلاثة أشهر أصبحت الشقة في الزقاق جاهزة للسكن، غرفتين متواضعتين مع صالة صغيرة ومطبخ وحمام داخلـي..." (٣).

أما في رواية "جمعة القفاري" جاء السرد للمكان الروائي كالتالي : "هبطا نزلة اللويبدة التي أفضت بهما إلى شارع 'وادي السير' أو 'الأمير محمد' كما أصبح اسمه. وكان جمعة يفكر بالطلعة المحدودبة التي تكاد تنتصب مثل ظهر رياضي إلى الدوار الأول"(٤).

أيضاً جاء سرد المكان كالتالي في روايته : "ومشينا في السوق نبحث عن العملاق، قالوا أن منطقة تمتد من سينما رغدان مروراً بدخلة هاشم إلى سينما زهران..." (٥).

وفي رواية "الشظايا والفسيفساء" جاء السرد وصفا كالتالي "كان وسط عمّان مركز تجمع الناس، ورشة اجتماعية، نقطة الاستقطاب، ثم تناثرت عمّان في عصر مشمشية النفط في كل الاتجاهات"(٦).

وأيضاً ما جاء كالتالي :"شقة نظيفة ضيقة، أثاثها بسيط لكنه يليق بصاحب ذائقة فنية، من غرفة في هذه الشقة الضيقة ذات الجدران المتقاربة كالعشاق والسقف الواطئ الذي يوشوس الأرض..." (٧).

---

(١) زياد قاسم : أبناء القلعة، ص ٥.

(٢) المصدر السابق، ص ١٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٠.

(٤) مؤنس الرزاز : جمعة القفاري، ص ١١٤.

(٥) المصدر السابق، ص ٢٠٠.

(٦) مؤنس الرزاز : الأعمال الكاملة، ص ٦٤١.

(٧) المصدر السابق، ص ٦٤٣.

فالسرد في هذه الرواية وحد في عدة مواطن كالتالي : "مدفونة في الصالة المهيبة المطلة على صخب الشميساني تتأمل الصخب ملياً ولا تسمعه، تعد لنفسها فنجان نسكافيه، وتراقب الشوارع المكتومة واللوحات الراعبة..." (١).

وفي رواية سميحة خريس : "دفاتر الطوفان" يظهر السرد المكاني بكثرة، فتمثل ذلك من خلال التالي : "تحشرني الدكاكين بعشرات البضائع في حيز ضيق، يتاجر تقي الدين بحبال المصيص والحلاوة البيروتية..." (٢).

فالدكاكين هي المكان المسرود بما تحويه من بضائع، أيضاً جاء ذكر السوق / المكان مسروداً وذلك كالتالي : "ترتفع أصوات تجار السكر في قلب السوق، بعضهم ينادي أيضاً على الرز..." (٣).

وفي روايتها "شجرة الفهود... تقاسيم العشق" نلاحظ السرد المكاني بارزاً في أعمالها ولذلك كان الاهتمام جلياً : "الشي الذي فتح لي آفاق المكان، أعمدة البيت وأسواره وخزائنه ومخزونه، أبوابه الكثيرة المغلقة في الداخل، بوابته الكبيرة التي تنفتح على الكون، أقف على عتبتها، وأراقب الحقل فيتوهج في فؤادي كحفلة قناديل..." (٤).

أيضاً ما جاء كالتالي : "ظللت لفترة طويلة أخرج من حجرتي متوقعة فناء الدار وظهر البئر فأفاجأ بحجرة أخرى ... هنا تفضي الحجر إلى بعضها ... أفتح درج المطبخ الأعلى على أنه المكان المخصص للملاعق، فأجد أدوات التنظيف، أنظر إلى الحائط قبالة السرير علني أرى فهد الرشيد وأكتشف أن صورته انتقلت إلى الصالون..." (٥).

أيضاً ما جاء كالتالي عند ذهاب فريدة إلى المدينة الطبية لزيارة المحامي محمد الرشيد في المستشفى كالتالي : "... إلى يميني أرض فضاء فيها بقايا شجر وبعض بيوت

(١) مؤنس الرزاز : الأعمال الكاملة، ص ٦٤٨.

(٢) سميحة خريس : دفاتر الطوفان، ص ٤١.

(٣) المصدر السابق، ص ٦٨.

(٤) سميحة خريس : شجرة الفهود ... تقاسيم العشق، ص ١٠.

(٥) المصدر السابق، ص ٩٠.

الأثرياء تغزوها وحدائقهم المنمقة الأنيقة، لاحت من بعيد البوابة الضخمة والقباب وكأس الدواء الرشيق، العسكري عند الباب أكد على السائق أن لا يقف في المواقف وأن يعود أدراجـــــه..." (١).

أما رواية "الشهبندر" لهاشم غرايبه نراه يهتم بالسرد المكاني، وهذا السرد جاء على الأغلب في مدينة عمَّان، وذلك كالتالي : "كنا في مقهى حمدان، أول طلعة الشابسوغ، حيث نلتقي نحن الشباب المتعلمين..." (٢).

أيضاً ما جاء كالتالي : "كان السيل -وادي عمَّان الفقير- يعاني من شح المياه، ويمارس لعبة الاختفاء والظهور على هواه ذلك العام، كان يشبه رجلاً عجوزاً يتوكأ على سيقان أشجار الحور ويستريح عند أجمات القصب..." (٣).

وفي موطن آخر يذكر السرد كالتالي :"كان الطريق المنحدر من أمام بيتنا في جبل عمَّان يماشي الريف الصخري شرقاً، قبل أن يدور منحدراً بحدة إلى وادي عمَّان (حي السيل) كان المشي على ذلك الطريق عسيراً" (٤).

فالراوي يهتم بالمكان ونراه يبرز جمالياته بشكل واضح كالتالي : "خرجت من عند ستناي في المهاجرين ركبت الأتومبيل، وتوجهت فوراً إلى جبل اللويبدة، عبرت طريق المهاجرين بسهولة، ثمة ازدحام أمام المسجد الحسيني عبرته بهدوء، ألقيت نظرة سريعة على محل الأقمشة المغلق الذي سيتابع نشاطه غداً، واستدرت يساراً إلى شارع السعادة فشارع فيصل، اخترت أن انعطف يميناً باتجاه طريق السلط لأن (شلية غنم) كانت تعبر الشارع قادمة من جهة وادي خريس..." (٥).

---

(١) سميحة خريس : شجرة الفهود ... تقاسيم العشق، ص ٢٥٠.

(٢) هاشم غرايبه : الشهبندر، ص ١٠.

(٣) المصدر السابق، ص ٧٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٢٩.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٧١.

٢-المنظور الوصفي :

الوصف من الوجهة المعجمية هو : "وصفك الشيء بحليته ونعته" بينما يعني الوصف من الوجهة الاشتقاقية التجسيد والإبراز والإظهار، حيث كان يقال : "قد وصف الثوب الجسم، إذا نمّ عليه ولم يستره"[1]. فالوصف يناقض السرد، والسرد يتعارض مع الوصف، الوصف يبطئ حركة المسار السردي على الرغم من لزوم الوصف للسرد، أكثر من لزوم السرد للوصف، فكل عمل سردي يحتوي صوراً من الحركات والأحداث، وهذه الصور هي التي تشكل السرد بمفهومه الدقيق، كما أن كل عمل سردي يشتمل على صور من الأشياء والشخصيات، وهي التي تمثل في العهد الراهن ما يطلق عليه الوصف؛ وذلك على الرغم من أن هذه الصور شديدة الامتزاج عميقتها، دقيقتها، متنوعتها؛ ممتدة على مدى العمل السردي[2].

فالوصف أكثر ضرورة للنص السردي من السرد، إذ ما أيسر أن نصف دون أن نسرد، ولكن ما أعسر أن نحكي دون أن صف. لذلك يمكن تقبل الوصف بمعزل عن السرد، ولكنه لا يمكن أن يوجد من دون وصف، فكل الأجناس السردية (كالملحمة، والحكاية، والقصة، والرواية... لا يمكن لأي منها الاستغناء عن الوصف. حيث يتبوأ الوصف منزلة كريمة فيها، فالوصف يتطلع إلى الأحياء والأشياء فيصفها في تزامنها وتعاقبها معاً وهو حين ينصرف إلى الأحداث على أساس أنها مشاهد سيعلق مسار الزمن وسيفضي تعليقه؛ حينئذ إلى تمطيط الحكاية وتمييعها عبر الحيز[3].

فالوصف بمقدار ما يكون نافعاً في السرد، مطوراً للحدث، ملقياً عليه شيئاً من الضياء، ممكناً للنص الروائي من الارتشاش بمسحات من الجمال الفني، بمقدار ما يكون مؤذياً للسرد إذا جاوز الحد، إذ يوشك أن يغرق النص السردي فيعومه في لغة لا أول

(١) عبدالملك مرتاض : في نظرية الرواية في تقنيات السرد، ص ٢٨٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٨٩-٢٩٠.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٩٢-٢٩٣.

لها ولا آخر، فيحيد السرد عن غايته التي هي أصلاً، أداء وظيفة الحكي ضمن المكونات السردية العامة المتشابكة(١).

لذلك لا نحسب أن يتم نص سردي دون الوصف، فإن كنا نخشى من غلواء الوصف وطغيانه على النص السردي، بحيث يستحيل إلى لوحات جميلة من الوصف القائم على اصطناع لغة غالباً، وبحكم الطبيعة والوظيفة معاً ما تكون جميلة أنيقة (إن كان الكاتب الروائي يمتلك لغة جميلة أنيقة، وإنا لا نرى، على كل حال، كيف يكونه إذا لم يمتلكها على المواصفات التي وصفنا)؛ فإننا نخشى أن يستحيل النص السردي، من منحى آخر، إلى قطع لغوية تتشبه القطع الميكانيكية في جفافها وأدائها، فإذا هي لا تحتمل من الأدبية، ولا من الجمالية، ولا من الفنية، إلا تلك الشخصيات الورقية الشاحبة الملامح، والذابلة القسمات؛ وهي تتحرك فيها كالجثث المحركة؛ أو تلك الأحداث الواهية التي تضطرب عبرها، أو معها؛ ثم لا شيء من وراء ذلك(٢).

لهذا لا تعتبر الكتابة الروائية مجرد تقديم رسوم تمثل مناظر، ولا مجرد عرض لأحداث وشخصيات ولا مجرد وصف لأمكنة أو أزمنة؛ ولكنها أهم من ذلك، فاللغة هي سيدة المكونات السردية على سبيل الإطلاق(٣).

فاللغة في عطائها الجمالي، وانسيابها الصوتي، وصف لسوائها؛ وفي لعبها بنفسها وصف لنفسها، وفي تجليها عبر نفسها : وصف لما تعبر عنه ولما تمثل فيه(٤).

إذن اللغة في الكتابة الروائية هي كل شيء، وهي أساس العمل الروائي، وهي مادة بنائه، إذا نزعتها، أو نزعت شيئاً منها، هار البناء، وتهاوت أركانه شظايا، ولعل من أجل ذلك كانت الروائية الفرنسية ناطالي صاروط *(Nathali Sarraute, 1990)*، قالت في كتاباتها النقدية : "لا شيء يوجد خارج اللغة!" بل لذلك نقول نحن ولا شيء

---

(١) عبدالملك مرتاض : في نظرية الرواية في تقنيات السرد، ص ٢٩٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٩٥.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٩٦.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٩٧.

يوجد من دون لغة، فباللغة بلغت الرسالات السماوية، وباللغة أديت المبادئ على الأرض؛ وباللغة أعلنت الحرب العالمية الثانية، أيضاً باللغة نعبد الله، وبها نحب، وبها نبني الحضارة، وبها نكرس القيم، وبها ندافع عن الحقوق(١).

وإنا إن نزعنا عن العمل الروائي لغته بكل ما في هذه اللغة من توليدات وتعب، واستبدالات وإيحاءات، وظلال، وأهداب، وأوصاف، وأناقة، ورشاقة؛ فلن يبقى فيها من بعد ذلك من المكونات السردية شيء يذكر، ولا شيء يشكر(٢).

فالرواية إذن لغة؛ واللغة إذن أناقة، والأناقة هنا، هي وصف تجميلي، فبها يتم وصف المكان، سواء أكان قبيحاً أم جميلاً. فهو تجميلي حتى في حال التطلع إلى الوصف التقبيحي، والإشرئباب إلى الذم التهجيني. فليس الوصف في نهاية الأمر إلا صورة جميلة ذات ألوان وأشكال وأبعاد وأصباغ... فالسرد من حيث هو، لا يكون إلا باللغة ! والوصف، من حيث هو، لا يكون إلا في اللغة، ولا ينبغي أن يطفو الأفق السردي على الوصف فيمحوه من على سطح النص الروائي؛ كما لا ينبغي أن يطغى الوصف على الدفق السردي، فيحول بينه وبين التدفق والمضي نحو الأمام لتطوير الحدث، وبلورة ملامح الشخصيات وما تضطرب فيه من حيز وزمان(٣).

فالنشاز إذن، يمثل بطغيان أحدهما على الآخر؛ لا في وجود أحدهما بجانب الآخر، إذن، الخير كل الخير أن يتظافرا ويتظاهرا في المكان الملائم، والموقف المناسب، والموضع الموائم(٤).

وكأن السرد إنما يتمحض للمواقف السردية التي تتطلب العجلة، وتتسم بكونها أحداثاً خالصة يجب أن تضل كذلك؛ على حين أن الوصف كأنّ من غاياته التولج

---

(١) عبدالملك مرتاض : في نظرية الرواية في تقنيات السرد، ص ٢٩٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٩٩.

(٣) المرجع نفسه، ص ٣٠٠.

(٤) المرجع نفسه، ص ٣٠٠.

اللطيف في الموقف الملائم للحد من غلواء جريان الحدث وسرعته، وللتسلط على مشاهد معينة لجعل المتلقي يلتفت إليها[1].

فعند الانتقال إلى الروايات نلاحظ بداية اهتمام جمال ناجي بالجانب الوصفي في روايته "مخلفات الزوابع الأخيرة"، وذلك كالتالي : "مكاناً موحشاً، وملتقى للصوص الذين اتخذوا من كهوفه حصوناً لهم، ومخابئ تستعصي على الانكشاف ! ستفهن المدينة أيضاً في فراغ جبالها ووديانها، ستشهر أذرعها العنكبوتية، وتزحف معلنةً حربها الصامتة القاسية على فراغ مساحاتها"[2].

ولنتأمل ما جاء في وصف "مقهى أبو بركة" كالتالي : "الأصح أن أقدامهم اعتادت أن تقودهم إلى ذلك المكان المليء بالكراسي الخشبية المجدولة بحبال القش، والطاولات المربعة الواطئة، وورق اللعب المزركش، وفناجين القهوة وأكواب الشاي، و النراجيل المذهبة، والدخان المتصاعد من السجائر ومن الرؤوس المعتمة!"[3].

أيضاً ما جاء في موطن آخر كالتالي : "في الصالة الدائرية ذات السجاد الخمري المزركش قدم عرضه الاختباري أمام مدير الفندق وجمع من المشرفين على شؤونه"[4].

وجاء الوصف للمكان في موطن آخر كالتالي :"عاد الرجل واقتادهما إلى صالون واسع ذي جدران ملبسة بالخشب المحفور، وخزائن ومناضد وكراسي مؤطرة بالخشب المحفـــور..." [5].

أما زياد قاسم نراه يهتم بإظهار الوصف في أحداث روايته "أبناء القلعة" فيقوم بتهيئة الوصف بشكل مباشر على بناء المكان الروائي، الذي يشمل أعضاء الموقف من شخوص وأشياء : "الشارع الأول تزدحم فيه الدكاكين والبيوت الحجرية، ويلتقي مع الشارع

---

(١) عبدالملك مرتاض : في نظرية الرواية في تقنيات السرد، ص ٣٠٠.
(٢) جمال ناجي : مخلفات الزوابع الأخيرة، ص ١١.
(٣) المصدر السابق، ص ٦٢.
(٤) المصدر نفسه، ص ١٣٨.
(٥) جمال ناجي : مخلفات الزوابع الأخيرة، ص ١٢٥.

الثاني فوقه في تصاعد محدودب شديد الميلان، وترتفع على جانبيه أبنية حجرية من طابقين أو ثلاثة، حول كل منها أرض واسعة تنتشر فيها أشجار التوت والعنب واللوز والزيتون ... الشارع العلوي يحيط برأس المنحدر كطوق مسود حول جني عملاق، وعلى رأس المنحدر يجثم أكبر أثر في المدينة صنعته الطبيعة وصقلته أيدي السكان القلعة..." [1].

ويظهر الوصف في مكان آخر :"الطابق الأرضي يتكون من تسوية واسعة، احتشد فيها أثاث قديم، ومعدات بناء خشبية ومعدنية اعتراها القدم والصدأ، وأدوات حرب قديمة، وكل ما لم يستطع شمس الدين التخلي عنه أو استخدامه، فكانت عبارة عن مستودع مظلم تسكنه في أمن تام ... تطل التسوية على بستان واسع يمتد خلف المبنى، وقد انتصبت على جوانبه عرائش الدوالي وأشجار اللوز والدراق والأكيدنيا –الطابق الأول من المبنى مؤلف من شقتين، الأولى مؤجرة إلى عائلة أبي وداد الذي يعمل في الصحافة، والثانية مؤجرة إلى عائلة الأستاذ منصور..." [2].

وفي موطن آخر جاء وصف المكان كالتالي : "اشترى في البداية نزلاً بائساً يقع في منتصف الدرج العريض الذي يصل نهاية الشارع برأس القلعة من جهتها الغربية، كان النزل يتم الوصول إليه عن طريق ممر ضيق. قذر، وهو يتألف من ساحة صغيرة حولها ثلاثة أبواب لثلاثة غرف مستقلة عن بعضها، تشترك معاً في مرحاض خارجي لا باب له.." [3].

وفي رواية "جمعة القفاري" يظهر الوصف فيها كما جاء كالتالي :"يدخل كثير الغلبة إلى البيت يدخل؟ لا، إنه يعصف ببيت عائشة مثل زوبعة شعثاء..." [4].

أيضاً جاء الوصف في موطن آخر كالتالي : "عدت إلى شقتي الصغيرة الموحشة الشاحبة، فإذا كثير الغلبة يجلس على طاولة المطبخ وقد أخذ راحته، وأخذ نصف محتويات الثلاجة وراح يتناولها..." [1].

---

(١) زياد قاسم : أبناء القلعة، ص ٥.

(٢) المصدر السابق، ص ١٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٤.

(٤) مؤنس الرزاز : جمعة القفاري، ص ٢٢٢.

أما رواية "الشظايا والفسيفساء" جاء الوصف فيها كالتالي : "ثم اكتفت بتسلل خجول متعايشة مع ظلام كئيب، هكذا هي بيوت جبل اللويبدة القديمة. شبابيك ضيقة ونور خافت ضئيل مقتر..." [٢].

وفي موطن آخر جاء وصف عمّان كالتالي : "الوجوه مظلمة، عمّان الصغيرة القديمة حيث يعرف الكل الكل انتهت وانشطبت..." [٣].

أما سميحة خريس في روايتها :"شجرة الفهود تقاسيم العشق" جاء وصف المكان بشكل بارز، فالراوية اهتمت بوصف المكان كما جاء كالتالي :"بيتنا... إرثنا المجيد، كان صغيراً، ثلاث حجرات ومطبخ وحمام إفرنجي، ميزة نحسد عليها، في الحديقة مساحة مبلطة تسميها أمي البرندة..." [٤].

وفي موطن آخر جاء الوصف كالتالي : "عمّان الأنيقة والهواء العليل، جبل اللويبدة وبيتنا الجديد معلق في خاصرته وكأنه سيهوي إلى المنحدر ... تحته مباشرة سلالم حجرية عريضة، مهشمة، تنزلق إلى قلب البلد، وتنسكب في تهور مفاجئ في شارع السلط، تحف ببيتنا بيوتات صغيرة، هناك أخرى فارهة تزداد أناقة كما تسلق الطريق صعوداً، أما في محاذاتنا فالبيوت صغيرة دنيئة والساحات ترابية..." [٥].

وفي روايتها الأخرى "دفاتر الطوفان"، جاءت بإبراز الوصف بين الحين والآخر كالتالي : "بصيحات جريئة أعلن عن وجودي في المكان، عن حركتي، وأنفث دخان الفحم المحترق في أحشائي، تخرج غيمات رمادية وسوداء كثيفة، تتبدد كلما رفعها الهواء يتصاعد الدخان أعلى التل الذي أتمدد في منتصفه..." [٦].

---

(١) مؤنس الرزاز : جمعة القفاري، ص ١٧٥.

(٢) مؤنس الرزاز : الأعمال الكاملة، ص ٥٦٠.

(٣) المصدر السابق، ص ٥٧٦.

(٤) سميحة خريس : شجرة الفهود تقاسيم العشق، ص ٩٢.

(٥) المصدر السابق ، ص ٩٠.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٠٣.

وفي موطن آخر تأتي بوصف عمّان كالتالي : "فوالله إنني لأعرف أن عمّان روح الزمان وكنه الجمان وإن ظن شاك أنها ليست بدرة زمانها..." [1].

أيضاً ما جاء كالتالي : "انحدرت المياه من وادي عبدون ووادي السير إلى قلب السيل، والتقت السواقي المشهورة الترقة بالرافدين الكبيرين أسفل الوديان المتعرجة، هدرت ساقيتا ناعور ومصدار عيشه مجتاحة وادي خريس، ووادي الحدادة، والنهر الذي اعتاد المرور من رأس العين، فسوق الحلال، فالمصدار، فجسر المهاجرين، فالسوق التجاري، فجسر الحمام، فسوق السكر، ثم ساحة الخضار، وجسر العسلي، وجسر المحطة حتى الرصيفة..." [2].

أما رواية "الشهبندر" ذكر الوصف للمكان في عدة مواطن "جبل القلعة اليوم حجارة كبيرة متراصة لا رابط بينها إلا ذكرى تركتها لنا الكتابات الأوروبية التي عاصرتها..." [3].

وجاء الوصف في موطن آخر كالتالي : "في مساحة غائرة بالحائط الجنوبي ثمة خزانة من خشب البلوط مليئة بالزجاجات الملونة والكؤوس البراقة، على الجانب الشمالي الذي يشرف على شارع الرضا نوافذ خشبية من الأرض إلى السقف، تسع على زجاجها قطرات مائي بنعومة، ثمة قباب صغيرة مزججة بزجاج ملون..." [4].

أيضاً ما جاء كالتالي : "يبدأ الهبوط من الجبل إلى أطراف الوادي حيث تقل الحركة، وتخفت الأصوات، وتتباعد المسافات، إلى أن تصل إلى أطراف الخرائب ... هنا قنطرة مهجورة وهناك مدرج كبير من الحجارة، يسمونه هنا درج فرعون..." [5].

---

(١) سميحة خريس : شجرة الفهود تقاسيم العشق، ص ٢٤٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٧٧.

(٣) هاشم غرايبة : الشهبندر، ص ٤٦.

(٤) المصدر السابق، ص ٢١٤.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٦٠.

الخاتمـــــــــــة

توقفت هذه الدراسة عند عمان، بوصفها مكاناً روائياً، ولاشك أنّ تحويل عمان من مدينة ذات بعد واقعي، مرتبط بنشوء دولة ذات توجهات قومية إلى أفق تخييلي، يشير من ضمن ما يشير إليه، إلى انبثاق خيال روائي جديد، يجعل من هذه المدينة عالماً مفعماً بالحضور والحيوية والحركة، وفضاءً لصناعة الأحداث والشخصيات.

لقد برزت عمّان في الروايات موضع الدراسة، بأمكنتها المفتوحة والمغلقة، مدينةً روائية ذات طابع مميز قادر على بناء الشخصيات الروائية المتعددة، لهذا كانت عمان مدينة عربية تتعايش فيها شخصيات تنتمي إلى بلاد عربية مختلفة، ولها توجهات فكرية وسياسية متباينة، وقد اكتسبت عمّان سماتها من هذا التنوع الحضاري الخصب، الذي قادها إلى الانتقال من مدينة زراعية، يشكل السيل فيها نقطة مفصلية إلى مدينة تنمو، وتسعى نحو الخصب الحضاري والثقافي، وقد بلورت الرواية الأردنية نموّ عمّان ونظرت إليه بوصفه مشروعاً حضارياً، يطوي في أعماقه شخصيات شتى، وعلاقات كثيرة، واجتهادات متباينـــة.

وقد استخدمت الرواية الأردنية بنى سردية متعددة في رسم هذا الفضاء النامي، واتكأت على التاريخ والموروث الشعبي والذاكرة الشفوية، من أجل أن ترسم ملامح مدينة حديثة، كان لها موقع مميَّز في الماضي، وتاريخ مهم في الحضارات التي تعاقبت عليها.

Abstract

Place in the Jordanian Novel: Amman city as a model

Prepared by:
Islam Hassan Shhadeh AlQudah

Supervised by:
Prof. Khalil Mohammad Al-Shaikh

This study is considered a main aspect of the "novelistic place " through talking about the novelistic place in terms of structure, in how the place structuring beside the other narrative elements, through interference and correlation with it in the persona, event and time, so it shows the effective role of place in development and formation of personality affected by its surrounding environment and the realty it lives. In addition, we can see its direct effect on events that occur in this place, in its growth and development through understanding the extent to which it interacts with realty.

This study emphasized Amman as a novelistic place where events take place. So place was divided into to parts:

A. Open place.

B. Closed place.

So, both places included different places that were characterized with unique features and special sense, so the city places and the

neighborhood resembled the open place, while the market, the coffee shop, the bathroom, and the grave, resembled the closed places in Amman.

This beautiful city included different races, which made Mo'nes Al-Razzaz describe it as a city with no roots, due to the different human races inhabited this burg.

Despite the variability of on its inhabitants, they all form a family, dominated by love and affinity, thus, their love to Amman grows, and their dreams unite in this city in all aspects.

In addition, spatial narration and description highlighted the splendor of Amman's beauty in the mentioned Jordanian novels. So, historical places were resembled by the Castle Mountain, the Roman Theater, the Mosque, etc. In addition to its splendor sites that garnished Amman city such as the public marts and main markets downtown, cinemas and coffee shops, as well as the Nasr bathroom that is considered one of the most wonderful sites in Amman.

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

١- خريس، سميحة : شجرة الفهود... تقاسيم العشق، دار الكندي، إربد، ط١، ٢٠٠٢.

٢- خريس، سميحة : دفاتر الطوفان، منشورات أمانة عمان، ط١، ٢٠٠٢م.

٣- الرزاز، مؤنس : جمعة القفاري يوميات نكرة، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.

٤- الرزاز، مؤنس : الأعمال الكاملة الجزء الثاني، دار الفارس للنشر، ط١، ٢٠٠٣م.

٥- غرايبة، هاشم : الشهبندر، دار الآداب، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.

٦- قاسم، زياد : أبناء القلعة، مديرية المكتبات والوثائق الوطنية، ط١، ١٩٨٩م.

٧- ناجي، جمال : مخلفات الزوابع الأخيرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

ثانيا : المراجع :

١- أبو نضال، نزيه : علامات على طريق الرواية في الأردن، دار أزمنة للنشر، ط١، ١٩٩٦م.

٢- بارت، رولان : طرائق تحليل السرد الروائي، ترجمة : حسن بحراوي، بشير القمري، عبدالحميد عقار، الرباط، ط١، ١٩٩٠م.

٣- باشلار، جاستون : جماليات المكان، ترجمة : غالب هلسا، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٠م.

٤- بحراوي، حسن : بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، ط، ١٩٩٠م.

٥- حسين، خالد : شعرية المكان في الرواية الجديدة "الخطاب الروائي لإدوار الخراط نموذجاً"، مؤسسة اليمامة، الرياض، ٢٠٠٠م.

٦- حداد، نبيل : الرواية في الأردن فضاءات ومرتكزات، سلسلة كتب ثقافية تصدرها وزارة الثقافة، عمان، ٢٠٠٢م.

٧- خريسات، محمد : عمان في العهد الإسلامي، منشورات أمانة عمان، ط١، ٢٠٠٤.

٨- رضوان، عبدالله : أسئلة الرواية الأردنية دراسة في أدب مؤنس الرزاز، المؤسسة العربية للدراسات، ط٢، بيروت.

٩- رشيد، عبدالله : ملامح الحياة الشعبية في مدنية عمان (١٨٧٨-١٩٤٨)، منشورات أمانة عمان، ٢٠٠٢م.

١٠- رشيد، عبدالله : الكتاتيب ونظمها التقليدية في مدينة عمان (١٩٠٠-١٩٤٨)، منشورات أمانة عمان، ط١، ١٩٨٣م.

١١- السعافين، إبراهيم : الرواية في الأردن، منشورات لجنة تاريخ الأردن، عمان، ط١، ١٩٩٥م.

١٢- سمعان، إنجيل : دراسات في الرواية العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ١٩٨٧م.

١٣- الشمالي، نضال : تجربة زياد قاسم الروائية، دار وائل للنشر، ط١، ٢٠٠٢م.

١٤- صالح، صلاح : قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر، دار شرقيات للنشر، ط١، ١٩٩٧م.

١٥- العيد، يمنى : تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي، دار الفارابي، بيروت، ١٩٩٠م.

١٦- غوانمة، يوسف : عمّان حضارتها وتاريخها، دار اللواء للصحافة والنشر، عمان، ط١، ١٩٧٩.

١٧- الفاعوري، عوني : أثر السياسة في الرواية الأردنية، دار الفارس للنشر، ط١، ١٩٩٩م.
١٨- فضل، صلاح : نظرية البنائية في النقد الأدبي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط١، ١٩٧٨م.
١٩- قاسم، سيزا : بناء الرواية دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م.
٢٠- كاصد، سلمان : عالم النص، دار الكندي، إربد، ط١، ٢٠٠٣م.
٢١- الكردي، محمد : الأردن في أشعار العرب، منشورات وزارة الثقافة، عمان، ١٩٨٨.
٢٢- الماضي، شكري : أبو الشعر، هند : الرواية في الأردن، عمان، ط١، ٢٠٠٢م.
٢٣- مرتاض، عبدالملك : في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٨م.
٢٤- مساعدة، نوال : البناء الفني في روايات مؤنس الرزاز، دار الكرمل للنشر، عمان، ط١، ١٩٩٦م.
٢٥- ملكاوي، حنان : مدينة عمان (١٩٢١-١٩٤٧)) دراسة تاريخية، دار الكندي، إربد، ٢٠٠٢م.
٢٦- النابلسي، شاكر : جمالية المكان في الرواية العربية، المؤسسة العربية، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.
٢٧- النصير، ياسين : إشكالية المكان في النص الأدبي، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط١، ١٩٨٦م.
٢٨- يعقوب، ناصر : الرؤية والتشكيل دراسة في فن جمال ناجي الروائي، دار فارس للنشر، عمان، ط١، ٢٠٠١م.

ثالثاً : المعاجم :

١- ابن منظور : لسان العرب، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم، دار صادر، بيروت، ١٩٠٠.

٢- برنس، جيرالد : المصطلح السردي، ترجمة : عابد خزندار، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م.

٣- زيتوني، لطفي : معجم مصطلحات نقد الرواية، دار النهار للنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.

٤- الزبيدي : تاج العروس، دار ليبيا، بنغازي، ١٩٦٦.

رابعاً : الدوريات :

١- النصير، ياسين : الرواية والمدينة : المركز – الضواحي – السلطة، مجلة أدب ونقد، ع ١٣٨، ١٩٤٧م.

خامساً : الرسائل الجامعية :

١- الخروبي، غدير عثمان : المكان في رواية "مدن الملح" لعبدالرحمن سيف، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٣م.

٢- العضايلة، محمد : المكان الأردني : دراسة في الشعر الأردني المعاصر، جامعة مؤتة، ٢٠٠٣م.